يَأكُلُهُنَّ
سَبْعٌ عِجَافٌ
رباب السنهوري
مجموعة
قصصية

# يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ

**مجموعة قصصية**

بقلم / رباب السنهوري

# الفهرس

1- شكولاتة بطعم الجرح.

2- صخب السكون.

3- ماريونيت.

4- وصايا الجد العشر.

5- بتوقيت كييف.

6- يأكلهن سبع عجاف.

7- صوت بذيء متحشرج.

8- أحمر قاني.

9- أوقد لي يا هامان على الطين.

10- عناق الغيب.

11- أبيض شاهق.

12- عود الخيزران الرفيع.

13- جحيم سيرابيون.

14- المبشرون خلسة.

# شوكولاتة بطعم الجرح

كانت **إيما** ممددة على الأريكة الجلدية ذات اللون البني، ممسكة بريموت التلفاز، وتقلب ما بين قنواته، و لكنها لم تجد في تلك الليلة ما قد يثير فضولها لمتابعته تملكها الملل؛ فليالي الشتاء طويلة، وخصوصًا إذا لم يكن لدى المرء شيئًا ليفعله.

استمرت على حالتها تلك حتى صار عقلها مشوشًا؛ فأغلقت التلفاز، وقامت من جلستها لتعد كوبًا من الشاي الدافئ تتناوله مع كرواسون الشوكولاتة اللذيذ.

كانت إيما كأغلب النسوة يدفعهن الملل لتناول الطعام، ولكنها على الرغم من ذلك ما تزال تحتفظ بجسد المرأة الفرنسية المتناسق، فهي فارعة الطول، ممشوقة القوام، ذات مؤخرة بارزة بعض الشيء، ونهدين بالغي الصغر.

عادت من جديد للأريكة الجلدية وراحت تتناول الكرواسون بشيء من النهم، ثم أمسكت بهاتفها النقال؛ في محاولة يائسة للتواصل مع جون فقد أخبرها مسبقًا بانشغاله في هذا التوقيت، وبالفعل لم يجب على اتصالها.

رنت بعينها لمكتبتها الصغيرة؛ فلمحت ذاك الكتاب الذى منحتها إياه راشيل صديقتها السمراء بالجامعة.

تذكرت ذلك اليوم بمكتبة الجامعة حين ألقى أحد زملائهم بحاجيات راشيل من فوق الطاولة عمدًا، وأدعى حينها عدم قصده معتذرًا، و راحت بعدها راشيل تلملم أشياءها ولكنها في قرّارّة نفسها كانت موقنةً من تعمده ذلك، و كانت إيما أيضًا على ذات اليقين.

كان ذاك الكتاب ضمن حاجيات راشيل التي وقعت يومها حدجت إيما ذاك الشخص بنظرة مستهجنة، و كانت توقن كم هو عنصري عنيف؛ فآثرت الصمت، راحت تلملم مع صديقتها ما أوقعه ذاك اللعين.

لم يكن ذاك الشخص وحده من يتعمد مضايقة راشيل بين الحين و الآخر، فقد كان العديدون من أصدقاء إيما ينبذونها فهم يستغربون دراستها معهم، و يستهجنون صداقة إيما معها، فبالنسبة إليهم كانت إيما فرنسية مثلهم من ذوات الدم الأزرق بينما صديقتها لا ترقى إلا أن تكون من العبيد.

كانت راشيل تلمح نظرات الامتهان، والتي يصوبها الجميع نحوها، و توقن أنهم يتهامسون عليها فيما بينهم، و لكنها لم تحاول أبدًا أن تبث صديقتها شكواها من ذلك الأمر.

ما بين الحين والآخر كانت إيما تتعجب من تلك القوة التي تتمتع بها صديقتها تجعلها تتعايش و تتعلم، و تعمل في مجتمع لا يرى بها أكثر من خادمة.

هبت إيما من جلستها فجأة لتلقط الكتاب..

كان الكتاب لمفكر فرنسي شهير.. تعرفه إيما جيدًا، لقد دارت بينه و بين السلطة خلافات عدة، تعرض للسجن لوقت ليس بالقليل، رغم كون ذاك ليس دارجًا أن يكون في البلاد سجناء رأى.

كانت تلك المرة الأولى التي تنتبه فيها –إيما- على عنوان الكتاب، تذكرت يومها أنها أخذته من صديقتها في غير اكتراث فلم يكن لديها أبدًا شغف ولو قليل بالقراءة.

كان الكتاب معنونًا بـــــــ (مصاصي الدماء) ..

أدارت غلاف الكتاب، والذي استهله مؤلفه بكلمات غريبة.. كان نصها..

(( عذرًا فلا أملك سوى أن أكتب، و سأظل أكتب؛ حتي يسمع صوتي العالم بأسره )).

في الصفحة التالية للاستهلال..

ظهرت رسوم لرجل أبيض وهو يعض بنواجذه على رقبة آخر أفريقي، و لم يكن ذلك الأخير يرتدي شيئًا على جسده كاملًا سوى ما يستر عورته، و كان الدم ينساب من رقبته إثر العضة ليسقط في جيب ذاك الأبيض.

أصابت الصورة جسدها بقشعريرة، وتملكها شعور مريب فتساءلت في نفسها:

- إيلام يرمي مؤلف الكتاب بصورة كتلك؟!

فجأة رن جرس هاتفها النقال؛ فوضعت الكتاب جانبًا بعد أن وضعت ريموت التلفاز فوق الصفحة كي تثبتها

على الشاشة ظهر اسم حبيبها جون...

كان قد انتهى لتوه من عشاء عمل شرب فيه نخب صفقة رابحة أتمها، وكان على أتم استعداد لفعل أية شيء تلك الليلة للاحتفال

أتاها صوته متهللًا، و كانت تذكر عدد المرات التي سمعت فيها صوته متهللًا هكذا، فجميعهن إثر صفقات رابحة فقد كانت أعماله تعني له الكثير.. والكثير جدًا.

دعاها لاحتساء الشراب في منزله، ولكنها رفضت الأمر معللة رفضها بأنها ليست في مزاجٍ جيد لتلبي تلك الدعوة، حينها تملك جون بعض الإحباط، بدا ذلك جليا في صوته، ولكنه استدرك الأمر قائلًا:

- لا عليك.. دعينا نؤجل الأمر، و لكن ما رأيك أن نحتسي القهوة سويًا.

رحبت إيما بالأمر فربما يكسر ذلك شيئًا من الملل بداخلها

في المقهى الأفخم في ليون.. تلك المدينة الساهرة، والتي رغم شتاءها القارص لم تكن تحمل عبء شيء ...

طلب جون كأسًا من الجعة، والتي لا يكف طيلة اليوم عن شربها فهي بالنسبة إليه كالماء

و لكن ذاك لم يكن ليؤثر عليه صحيًا؛ كونه يشرب أفخر الأنواع في البلاد.. بينما طلبت إيما كوبا من الشوكولاتة الدافئة.

راح جون يحدثها عن الصفقة التي قد أتمها في حماس بالغ

كانت عيناه تتقدان جشعا بينما هو يخبرها عن عشرات الآلاف الهكتارات، والتي قد تملكها اليوم

و على العكس منه فقد كانت عينا إيما فاترتان و هي تستمع إليه، و لكنها لم تكن تستغرب ذاك البريق في عينيه، فقد كانت تراه إثر كل صفقة يشعر جون بكونها أنجح من سابقتها

حاولت جاهدة أن تشاركه شغفه، فاستطردت قائلة:

- إذًا حبيبي سيصبح من كبار المزارعين بالبلاد!!

- لا حبيبتي فهذه الهكتارات ليست هنا إنها هناك في أفريقيا السمراء، وهي مزروعة مسبقًا بأشجار الكاكاو لقد تابعت الحسابات السابقة لمحصوله إنها تنتج الكثير، و تكلفة الإنتاج لا تذكر إنهم هناك يملكون ميزة نسبية في كل شيء، و حتى العمالة الرخيصة؛ ما يجعل الأمر أكثر ربحية..

ثم راح يمازحها قائلا:

- هل ستتحملين أن نذهب سويًا لمتابعة العمل هناك؟!

همت أن تسأله:

- هل ستسافر إلى أفريقيا ؟!

لكنه لم يمهلها، فاستطرد قائلًا:

- أعرف أن الأجواء هناك قاحلة، و شديدة الحرارة، ولكن لن نقضي هناك سوى بضعِ أيامٍ فقط، فلن أستطيع المكوث هناك أكثر من ذلك.

لاحظ جون تململها وعلى غير العادة، فقد كانت دائمًا ما تتحمس لمتابعة إنجازاته أكثر من الصحفيين أنفسهم، ولكنها الليلة تبدو غريبة حقًا؛ فتوقف عن الحديث عن صفقته، أدار دفة حديثه، راح يخبرها عن تحضيراته لحفل زفافهم، خططه المستقبلية لعش الزوجية، والنعيم الذي سيصنعه من أجلها.

كان جون يدير حياته كملكة نحل تحوطها الشغالات، كل شيء في يومه كان يتم على خير وجه و لا يؤثر شيء على الآخر، و كانت إيما موقنة تمام اليقين أنه سيفعل كل ما يعدها به، و ربما أكثر، فلم يكن جون شابًا عاديًا كهؤلاء الذين تراهم في الجامعة، و لكنه كان ثريًا و ابن ثري من أثرياء المدينة المتنفذين.

حكت إيما بإصبعها ما بين حاجبيها ثم مدت يديها، و قبضت بحنان على راحتيه

- كم أنا فتاة محظوظة لأني أحبك جون.

في تلك اللحظة أحضر النادل طلباتهم، فسحبت يداها من يد جون برفق، أبعدت هاتفها النقال من وسط الطاولة بينما راح يضع النادل الأكواب عليها

انتهي النادل من عمله؛ فابتسمت شاكرة إياه ثم رحل...

مد جون يداه لكأس الجعة، و راحت إيما تراقبه في صمت.

تصاعدت ذرات البخار الذكية، المنبعثة من كوب الشوكولاتة الدافئ أمامها، فأشعلت بداخلها نشوة خفيه فقد كانت رائحة الشوكولا من الروائح المعدودة، والتي تحسن مزاجها؛ حتى أنها كانت تقتني من العطور المستخلصة من حبوبها ما ليس بالقليل.

أغمضت عينيها هنيهة كي تتسلل الرائحة لخيالها.. ثم فتحتهما..

كان جون يعلم كم هي حالمة كطفلة، و كانت تصرفاتها تلك تشعره بالانتشاء، فلم تكن كتلك الفتيات اللواتي عرفهن على مدار حياته، ولم تكن لديها أية أطماع في أمواله فقد كانت مسالمة و بسيطة كزهرة.

فتحت إيما عينيها مجددًا.

ها هو كوبها الكبير قد زين بوجه طفل يبتسم..

فقد كان صانعوا المشروبات في بلادها يتقنون الرسم فوقها، و يتفننون به محاولين بذلك رسم البهجة على وجوه مرتادي المقاهي.

ابتسمت في نفسها

كانت تحب أن ترى الوجوه الباسمة فوق مشروباتها، و اعتبرت ذلك فألًا جيدًا.

لكن الوجه المرسوم فوق كوبها ما لبث أن عبس في وجهها.

ظهر لها بهيئة طفل ذو شعر أجعد، لون بشرته يقترب من لون بشرة راشيل، و يرتدي ثياب مهلهلة فقميصه غير مغلق الأزرار، و بنطاله الواسع مشقوقة إحدى ساقيه في غير انتظام.

أطال الطفل النظر إليها، و أطالت هي الأخرى النظر إليه، و لكنه على عكس صديقتها راشيل. كان حزينًا جدًا، بدا كما لو كان مكسور النفس، و راح يبثها شكواه وترقرقت من عينيه السوداء دمعة، و تلتها دموع.

نفضت إيما رأسها محاولة أن تطرد تلك الخيالات بعيدًا، فاهتز شعرها الأشقر المنسدل بنعومة على كتفيها يمينًا و يسارًا.

بعدها بادرها جون بابتسامة.. قائلًا:

- و الآن أخبريني عن خططك لحفل زفافنا، أنا أعلم أنكن معشر الفتيات تعددن العدة لذلك اليوم منذ أن تصبحن مراهقات، ثم ضحك ضحكة مدوية و بادلته هي أيضا الضحكات، و شرعت في وصف تصورها لليوم، وانتهت لتمسك بكوبها كي ترشف منه رشفتها الأولى.

حينها حاول ذلك الوجه التواصل معها من جديد، و كان يحمل بين راحتيه حبات الكثير من حبات الكاكاو، وراح يقدمها إليها بابتسامة باهته وكأنما قد أجبره أحدهم على فعل ذلك للتو قائلًا:

-أتمني أن تستمتعي وأنتِ تشربينه أتعلمين أنني دومًا أشم رائحة حبوب الكاكاو في كفايّ، و في جسدي، و في لباسي المهترئ هذا؛ فهي تحاصرني طيلة اليوم، و لكنني يومًا لم أخبر طعمها في بعض الأحيان يخبرنا العم إيميل المشرف علينا بعد أن ينحي سوطه جانبًا

- أنها شهية و لذيذة، وأن لها طعم مشروبات الجنة.

لا أدري لما أظنه كاذب !..فهو أيضًا مثلنا لم يذقها يومًا ما؛ فالعم إيميل ليس أوربيًا؛ له بشرة سوداء مثلي أنا و بقية زملائي، ولكنه على العكس منا فهو يملك سوطًا لعينًا ينهال به علينا إذا تقاعس أحدنا عن العمل أو شعر هو كذبًا بتقاعسه.

بعدها راح الطفل يهرول بثقل بين أشجار الكاكاو العالية ثم توقف من جديد، و مال على جرحٍ غائر بساقه العارية، و لمسه بتأوه ثم رفع عينيه إليها من جديد.. قائلًا:

-أتعلمين جئت إلى هنا برغبتي لقد منيت بالثراء.

مرت خمس سنين منذ هربت من المنزل، و خَلفت خلفي أبوايّ و أختًا صغيرة منذ ذلك اليوم لم أرى أحدًا منهم، و أيضًا لم أتقاضى أجرًا قط؛ كي أستطيع العودة لرؤيتهما فهذا الكوب بين يديك مصنوع من عمرى، و للأعمار لو تعلمين نكهة رائعة لا يدركها من هم مثلي..

فقد لفح هذا الكوب سنون طفولتي بوهج يحرق كشمس استوائية.

توقف الطفل عن الحديث إلى إيما، وعاد يهرول بين الأشجار لم يبدو كطفل يلهوا، فقد كان يرفع قدميه العاريتين بحركات غريبة، و كأن الرمل أسفلهم يلسعه.

وضعت كوبها على المنضدة من جديد دون أن ترتشف منه شيئًا، و ظلت تراقب ما يحدث بداخله...

كانت إيما تؤمن بالماورائيات بعض الشيء، شأنها في ذلك شأن كثيرًا من الفتيات في مثل عمرها، و لكنها أيضا كانت توقن أن لا أحد من الممكن أن يتواصل معها من خلال كوب تشربه، فهذا الأمر خارج حدود المنطق!

أصابها شيء من الخوف رغم جلوس جون أمامها، و رغم صخب المقهى و أضوائه الكثيرة.

استدار الطفل، و لمس يديها بضعف، فجرحت خشونة كفه أصابعها سألها:

- هل جربت ذاك الوهج – الذى أجري فوقه - من قبل؟! ..

و استطرد قائلًا:

- أجربه يوميًا منذ جرأت على المشي، دون أن أستند لحائط.

استغرقت في شرودها ذلك دقائق معدودة، و بعدها جذبها جون من أفكارها.. متسائلًا:

- إيما ماذا بك ؟!

حركت يديها في خصلات شعرها، و ضغطت على جمجمتها بعنف..

-لا شيء.

- كيف لا شيء.. تبدين اليوم شاردة جدًا ؟!

حينها استدركت محاولة أن تجمع شتات أفكارها.

- انظر لذلك الوجه فوق الكوب أظنه يحدثني، يبدو لي كطفل بائس أكل الزمن عليه و شرب.. ثم أخذت تستطرد في وصف ما حدث

حينها أستوقفها جون قائلًا.. هازئًا:

-عزيزتي.. يبدو أنك لم تنامي جيدًا ليلة البارحة.

- لا صدقني .. ليس الأمر كذلك ..فقد حدثني باكيًا.

- حبيبتي إنها مجرد رسمة فوق كوب ليس إلا !!

و بينما هما يتبادلان أطراف الحديث رن هاتف جون، كان على الطرف الآخر أحد الموظفين الكبار

كانت إيما تعرفه جيدا، فللرجل سلطة تتعدى كل أعمال جون المالية. ضغط جون زر الموافقة مسرعًا.

تبادلا التحايا ثم سأله من على الطرف الآخر عن صفقته، و حينها أخبره جون بذات الحماسة، و التي كان يحدثها بها في بداية جلستهما، و ذات البريق الذي كان يلمع بعينيه أن الصفقة تمت على خير ما يرام، وسأله إذا كان من الممكن أن يتلاقوا غدًا؛ كي يمده بالمزيد من التفاصيل.

انتهى جون من مكالمته ثم عاد ليكمل حديثه معها..

حبيبتي لا تشغلي بالك بالأمر. هذه محض خيالات لكونك متعبة، أو ربما أنك بشكل أو بآخر تحت تأثير أفكار صديقتك راشيل؛ فهي قادمة من بلدان ما زالت تعيش في عصور ما قبل الميلاد، و مازالوا هناك يؤمنون بالجان، والأرواح الشريرة، و يحملون المكانس لمطاردة الساحرات يبدو أنك تحدثت إليها كثيرًا مؤخرًا.. و استطرد قائلًا:

عزيزتي دعي كل شيء خلفك، فأنت ترتشفين الكاكاو في أفخم مقاهي ليون على الإطلاق، بعدها اقترح عليها أن يعيدها للمنزل كي تأخذ قسطًا من الراحة، و بالفعل واقفت على عرضه.

في طريق عودتهما كانت إيما تنظر إلى جون، المنشغل بعجلة القيادة بنظرات استغراب؛ فقد بدا إليها للمرة الأولي نبيلًا من ذوي الياقات البيضاء و الدم الأزرق، و لكنها عادت من جديد لتطرد خيالاتها قائلة في نفسها:

- ربما أنا بالفعل مرهقة.

على باب مسكنها ودعها جون بقبلات حارة، وكان في قرارة نفسه ينوي الدخول كي يقضيان ليلتهما سويا، و لكن إيما رفضت ذلك الأمر كونها متعبة، و في أمس الحاجة للنوم.

على الطاولة أمام التلفاز كان ذاك الكتاب ما زال متسمرًا. لمحته إيما فكزت على نواجذها.. متسائلة:

- ما بال هذه الليلة ؟!

مكثت في فراشها طويلًا و لكنها لم تستطع النوم، فذات الخيالات ما زالت تطاردها مدت يديها لبرطمان صغير بجانب فراشها، و التقطت منه حبة منومة.

كانت تلك الحبات سريعة المفعول؛ فاستلقت مستلمة للنوم.

رأت نفسها تتجول وسط غابة مليئة بأشجار الكاكاو العالية، مكتظة بأطفال كُثر يشبهون ذلك الذي حدثها، نحيلي الأجساد، و ثيابهم مهترئة، و يتقافزون لالتقاط حبوبها، وآخرون يرفعون قدم و ينزلون أخرى بالتبادل؛ في محاولة لتفادي الرمال اللاسعة أسفلهم، وأسفل إحدى الأشجار كان العم إيميل يربط مجموعة من الصغار، و ينهال عليهم بسوطه. وضعت إيما يديها على عينيها كي لا تري شيء، و لكنها عادت لتبعدهم من جديد حين لمحت طيف جون على مقربة من العم إيميل.

بدا جون يفعل تمامًا كتلك الصورة التي طالعتها بالكتاب للرجل الأبيض كان يعُض بنواجذه بشدة على عنق إيميل، بينما ينساب دم الأخير في جيب جون.

# صخب السكون

ارتكن بظهره للجدار الأخضر الشاحب الذي صنع الزمن على أحجاره قصصًا ملحمية، فعلى الجدار كانت أتربة الصيف تختلط بزخات المطر صانعة رسومًا سريالية، تتدلى من تلك الرسوم أباريق.. تروي أعشاب الصبار المصطفة على جانبي الجدار، و كل الجُدر الخضراء الشاحبة من حوله

ارتكز بذراعه على ركبتيه

كان المربع السكني الهادئ يأكله الصمت المطبق، و لا شيء يكسر ذاك الصمت سوي خرير ماء قوي يتساقط من زجاجة سقى، و نحيبٌ مختلط بالدموع ، تطلع بعينيه لمصدر الصوت كان قادمًا من طفل صغير يروي زهرة باهته على أحد الجوانب

كان ذاك الطفل يروي الزهرة بسخاء كافٍ لأن يجعلها إما أن لا تحتاج للماء مدى الحياة، أو أن تذبل و تموت بمجرد أن يوقف ذاك الخيط المتناثر من زجاجته و يرحل.

ارتكز بيديه على الحصوات المدببة بجانبه كي يستطيع النهوض.. متسائلًا في نفسه:

- لماذا يضعون الحصى المدببة تلك في الممرات هاهنا؟!.. ما الذي يشعرهم بأننا لا نحتاج للراحة أيضًا كما يحتاجون إليها؟!

حث خطواته متوجهًا صوب الطفل، والذي كانت دموعه، و مخاطه المختلطان بالأتربة يثيران في النفس الكثير من الشجون

كان الطفل ينتحب بصوت متهدج لم يفهم منه أية كلمة سوي.. أمي

مسح على جسده النحيل، ربت على كتفيه بحنو.. قائلًا:

- كفى ..الزروع تموت من كثرة الماء.

لكن الطفل لم يشعر به، و لم ينتبه إليه، و كأنه غير موجود..

انتهي الطفل مما كان يفعله، ألقى نظرة باهتة على المكان بأسره.. ثم كفكف دموعه بأكمامه المتسخة و رحل متثاقلًا، و كأن عقله لا يريد الرحيل.. لكن جسده لم يكن يعرف أن يقيم.

تجسد أمامه هذا الطفل في صورة معاذ، طفله الذي لم يتم العاشرة، و تساءل في نفسه:

- ترى هل يفعل معاذ يومًا مثلما يفعل ذاك الطفل!! هل سيأتي يومًا هنا ليروي الزرع حولي،

هل هذا الطفل يكز على أسنانه حين ينام أو يقضم على أظافره؛ جراء عنف أمه أو يبول على نفسه مثلما كان يفعل معاذ حين كنت أخيفه؟؟

ربما لو كانت أمه تفعل مثلي ما كان أتى إلى هنا ليتفقدها.

تذكر ذلك اليوم الذي نقص فيه معاذ ثلاث درجات في امتحان اللغة العربية، و بالنسبة لطفل لم تكن تلك الدرجات الثلاث تعني شيئًا، و لكنه يومها ربطه بذاك العمود الخرساني الذي يتوسط شقتهم و راح ينهال عليه بحزامه ذو القفل المعدني الغليظ، و يومها نام معاذ ليلته و كأنما قد أغشى عليه ليصحوا، و قد تبلل فراشه.

تذكر أيضًا حين أتته زوجته لتخبره بالأمر و كأنها كانت تحاول أن تلين قلبه على ولده، و لكنه عوضًا عن ذلك قد صفعه صفعة كادت تسقط أسنانه؛ لئلا يبلل فراشه مجددًا.

ذرفت عيناه الدمع، و هو يتذكر أفعاله تلك مع ابنه.

بينما رحلت أخر خطوات الطفل خارج المربع السكني الصامت، و رحل معه ضجيجه الخافت، فعاد لجلسته من جديد.

إرتكن بظهره للجدار – من جديد- متسائلًا:

أكان الأمر يتطلب أن نرتدي ذاك الثوب الأبيض؛ حتى ندرك الحقيقة؟!

لم يكن كأية ثوب!.. كان لغزًا غريب يحجب ما أمامه، و ما خلفه كان سر آخر، لم أرتد مثله قط في حياتي.

لقد جعلني أتنقل في الأثير.

أدور في ذاك الفلك البعيد، و لكنه فعل بي ذلك دون إنذار مسبق لقد أخذني على حين غرة، كانت الأيام تجرى بعنف شديد، و كان لأيامي عنفوانها الخاص بها ..

هزأ و هو يضغط بأصابعه على ذقنه.

- ترى هل ما زلت بحاجة لذاك اليوم المضاعف عدد ساعاته؛ لأنهي ما على القيام به؟!

لقد كانت الأربعة و عشرون ساعة بالنسبة إلى وقت قصير

يهزأ...

- لا بل صارت الأربعة ساعات ذاتها وقت طويل في هذا الانتظار المخاتل اللا منتهي.

خطر على باله أمر ما فأستند بكفيه على الحصوات من جديد وهب من جلسته مسرعًا، كان يتعمد ألا يحدث صوت مشيته جلبة كما كان يفعل سابقًا؛ لأن حتى الجلبة البسيطة في ذاك المربع كانت شديدة الإزعاج.

ألقى نظرة على المكان لم يمل من إلقائها.. مذ ذاك اليوم الأول لإقامته فيه.

وضع يديه في جيوبه محاولًا أن يلتقط سيجارة، ولكنه لم يجد شيء سوى بعض الأتربة المتناثرة أصابه اليأس فلوي شفتاه ممتعضًا..ثم جذب جيبيه للخارج، و نفضهما ثم استدار لوجهته في طرقات البلدة

كان يرنو بعينين ثاقبتين للمنازل من حوله بدت بعض المنازل و قد تغيرت، و لكن الأعم الأغلب منها ظلت على حالها..

في طريقه يرى صديقين من أصدقائه يتحدثان.. يقترب منهما ويسترق السمع لحديثهم محاولًا أن يلمح طيف ذكرى له فيما بينهم، و استمر هكذا طويلًا دون جدوى.

لم يكن أحدهم يكترث لذكراه في تلك الساعة؛ فقد كانوا منشغلين بأمر مشروعهم الذي يخططون له، كان أحدهم يشطح بطموحه، و الآخر يحثه على التأني.

حزن كثيرًا من نسيانهم له الأمر الذي دفعه للرحيل.

انتهى به المقام أمام منزله البسيط، كانت جُدر بيته أيضًا ما زالت على حالها، كان صوت (الكاسيت) يتهادى في سكينة من الدور العلوي توقف أمام الباب الموصد، وعاد للبحث من جديد في جيبه محاولًا أن يجد المفتاح؛ كي يستطيع الولوج ولكنه لم يجده، دق جرس الباب مرات عدة، وانتظر كثيرًا لكن أحدا لم يجبه..حدث نفسه:

- ربما ليس هناك أحد بالداخل.

ثم عاد ليجيب:

- لكننا لم نعتد أن نترك (الكاسيت) يعمل و نرحل. هل غير الزمن عاداتنا؟!

ربما معاذ بالداخل، و لكنه يخشى أن يسأل من بالخارج أو يهم بفتح الباب، كنت قد تركت له ذكرى مني. أصابته قسوتي عليه برهاب اجتماعي.. بالطبع لم أكن أرغب في ذلك، ولكنه حدث.

استجاب أخيرًا للأمر يبدو أن لا أحد بالداخل، جلس على الدرج أمام البوابة منتظرًا أن تفيق زوجته إن كانت نائمة، أو أن تعود إن كانت بالخارج..

أخذ يلقي نظرات متفحصة على قريته، كانت البيوت بالشارع الرئيسي بالقرية ساكنه كعادتها، و لكن الأطفال يرتعون محدثين جلبة لا يقدر عاقل على احتمالها، لكنه كان مضطرًا لتحمل جلبتهم؛ فقد كان الأطفال في قريته خارج نطاق السيطرة.

ضرب كفًا بأخرى.

تذكر ذاك الجار العجوز حين كان صغيرًا، بمجرد أن يفتح باب بيته كان هو ورفاقه يشعرون بالخطر، صرير باب منزله بالنسبة إليهم كإنذار غارة يعرفون ما بعده يقف بالباب يحمل عصاه يزعق به و رفاقه ألا يحدثون جلبة؛ فيهرع كل طفل منهم ليختفي بمنزله.

زم شفتيه.

- لم يعد شيئًا كما كان من قبل ها أنا ذا صرت أردد أقاويل العجائز.

ذهب إلى الشارع الرئيسي.

التقط من الأرض عصا رفيعة كتلك التي كان يحملها جارهم العجوز، و لوح بها للأطفال محاولًا إيقافهم؛ عن إحداث الجلبة، لكنهم لم يعيروه بالًا.

أخذ الأطفال يتخبطون به، و التصقت الكرة التي كانوا يلعبون بها برأسه، و لكنها لم تصبه بذاك الأذى الجسدي بقدر ما أصابته بأذى نفسى.

أدار جسده إليهم ، وارتحل.

على مرمى من منزله لمح شجرة الزينة والتي لطالما استظل مع زوجته بظلها، كانت أوراقها المشرشرة العريضة وغصونها المتدلية تحدثان الكثير من الظل.

وجد زوجته متسمرة أسفلها؛ فتنفس الصعداء..

لم يتفهم كيف لم يبحث عنها ها هنا، ألم تكن دائمًا تخبره بأنها تحب تلك الشجرة، كم مرة أخبرته أن أغصانها تحتويها.

ثم عاد يقول لنفسه:

- إنه الوقت كان دومًا كفيلًا بأن ينسينا الكثير من الأمور.

ذهب إليها مسرعًا، تلقفها بين أحضانه، و حملها و دار بها دورة كاملة بين ذراعيه بينما ظلت هي شاردة البال لم تتحرك من مكانها و لم تحرك ساكنًا كانت عينيها تزوغان في أمر بعيد...

صدم من رد فعلها؛ فتراجع بجسده للوراء.

ثم أخذ يتطلع إليها رنا بعينيه دمعة تحبسها بين أهدابها، و كانت طوال عمرها تستحي أن يلمح دموعها أحد سواه. لم تكن تريه إياها طواعية، و لكن رغمًا عنها؛ لأنه كان يقسو عليها في الكثير من الأحيان.

ما زالت كما كانت تخشى أن يلمح أحدهم دموعها، أو لربما ملت أن تلقي ذات التعليقات.

تمر إحدى جاراتنا بجوارها فتلومها على أنها ما زالت ترتدي الأسود، فماذا لو رأت دموعها؟! الناس لا يكفون عن التعليقات فلا تعليقاتهم تشفي جرح قلبها، و لا هي بالتي تصمت و تدعها و شأنها.

كز على أسنانه، و أخذ شهيقًا عميقًا، ثم عاد ليربت على كتفيها بشدة.

تحاصره التفاصيل..

تحاصرها التفاصيل..

هنا.. أسفل هذه الغصون المتدلية تشاجرا ذات مرة.

تعرض أمام عينيه الأحداث، وكـأنما هو يقف أمام شاشة سينما، و يتذكر لماذا تشاجرا.

تساءل في نفسه

- هل تتذكر هي أيضًا تلك المشاجرة الآن؟!

كانت ترتدي يومها أبهي ثيابها؛ فهي كالفراشة مذ عرفها، وكان- هو- كالطفل العابث يقطع أجنحة الفراشة ثم يفلتها.

حبس دمعة بين أهدابه هو الآخر.. متسائلًا:

- فيما كان عنادي؟!.. ألم يكن من الممكن للأمور أن تجري ببساطة؟!

تنتبه زوجته من شرودها، و تلقى نظرة خاطفة على ساعة يدها؛ فتدرك أنها أطالت الوقوف، و للناس ألسنة لا ترحم حتى و لو كانت تقف ها هنا؛ لكونها غير قادرة على الرحيل..

تمضي باكية تجر أقدامها، و تجر معها أذيال خيبتها ما بين التفصيلة و الأخرى.

تحدث نفسها بينما تواتر حركات سبابتها.. مشيرة صوب أماكن بعينها..

هنا كان يقسوا، و تهز برأسها ..

- لا أدرى لما ؟!.. فلطالما قسي عليّ دون سبب واضح..

كانت تسأله مرارًا .

- لم لا نحاول إسعاد أنفسنا ؟!

لا تتذكر عدد المرات التي أخبرته فيها أن الزمان أشبعها قسوة، و أنها تحب أن تسرق بسمتها من على شفاهه، لأن البسمة لم تكن لتأتيها طواعية،ولكنه لم يعر آلامها اهتمامًا.

ترفع سبابتها على استحياء مرة أخري، و ترنوا بعين كسِيرة في زاوية ما.

- هنا كان يحنوا، وهنالك كان يجبر خاطري بكلمات قليلة ما يلبث أن ينتزعها.

و حتى تلك الشجرة المتدلية الأغصان حزنًا كانت لنا تحتها أوقات نادرة، و لكنه لم يكن يهدأ حتي يمحوها..

تساءلت بصوت مسموع ...

- لماذا لم نحاول إسعاد أنفسنا ؟!

عبث السؤال بذهنه و أحدث في قلبه قطعًا، و كأنما هو سكين حادة تذكر كم من المرات سألته ذاك السؤال، و كم من المرات سخر منها؛ لكونه سؤالًا عبثيًا..

ينهشه حزنه و صمته يحملق في الفراغ..

تغلق زوجته فمها، و تيأس سبابتها من الحركة..فتمضي، و كأن على رأسها الطير.

تحاصره التفاصيل.

يمضى بجوارها، و حاله لا تختلف كثيرا عن حالها..

يربت على كتفيها محاولًا الالتصاق بها؛ كي يصلب عودها المترنح محاولًا أن يكون ذاك السند الذي لم يكنه يومًا..

تنساب دموعها رغمًا..

يمد يديه ليمسح دموعها، و لكن دموعها ما تلبث أن تزداد، و تجري في مجريان على خديها تعرفهما جيدًا، مجريان كانت قد نحتتهما دموع كثيرة سابقه.

يقف قبالتها يمد ذراعاه محاولًا إيقافها، و لكنها تستمر في مضيها غير عابئة بما يفعل..

يتفكر قليلًا في أمره.

يبدو أنه لم يعد ذا تأثير يذكر، فذراعاه المفتولتان ما عادا قادران على صد ذاك الجسد الهزيل أمامه..

يرفع كفيه، و يحملق بهما للحظات محاولًا أن يستكشف ماذا حل بهما.

لا يرى شيئًا غريبًا.. يتفحصهما أكثر.

تثقب عيناه خلايا كفيه، و يرى فيهما بلازما الدم، و هي تدور دورتها، و لكنه لم يستطع أن يدرك كنه ما رأى؛ فتلك المرة الأولى التي يرى فيها دورة الدماء، و هي تدور في عروقه.. مدركة وجهتها.

أصابه التخبط، و الإحباط..

- هل تدرك كرات دمي وجهتها بينما لا أدرك- أنا - وجهتي ؟!

يتهادى إلى أذنيه صوت الشيخ أحمد العجمي.. يتسلل من (كاسيت)يقرأ في عزاء على مقربه، و هو يقرأ بآيات من القرآن.

( لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد )*1*

يتسأل في نفسه.

هل حاولت يدايّ أن يكون لها ذات التأثير حين كانتا تقدران؟ هل مددتهما يوما لأمسح دموع تلك المرأة الطيبة التي تمضي بجواري ؟!

جاوبته نفسه بمزيد من الصمت..

قبض على أصابعه بشدة تلك الأصابع التي لطالما طبعت أثارها على وجنتيها.

تفحص وجنتيها ..

كان شيئًا من أثار أصابعه ما زال باديا عليها.

مسك بيمينه التي صفعتها، حاول مستميتًا كسر أصابعه، و لكنها لم تعد تنكسر.

تمنى لو أنهم قطعوا قبل أن يصفعوها، و لكنه عاد يقول لنفسه:

- هو الزمن لا يعود أبدًا للوراء.

ما زالت الدموع تنساب على وجنتيها  يشعر بها بينما لا تشعر به، و يستطيع لمسها بينما لا تحس لمسته.

كان كل شيء حوله صوت حفيف الشجر الذي يحدثه مع الرياح، و رنين صخب الكون من حوله يخبره بفجاجة

- أن الزمن لا يعود أبدًا للوراء.

بعدها باغت زوجته بسؤال مفاجئ.

لماذا تبكين ؟! ..

انسابت دموعه على وجنتيه لم أكن ذلك الشخص الذى يستحق دموعك

سألت زوجته نفسها...

لماذا أبكي؟!

*1* الآية الاثنان و عشرين من سورة (ق)

تستدرك؛ فتقف الدموع في حلقها، و تتلاحق الذكريات في عقلها، و كأن أحدهم يدق عليه بمطرقة تشعر بصعوبة شديدة في التنفس، و تمد يديها لتنزع دبوس (الإيشارب ) ظنًا منها أنها بذلك تفسح مجالًا للهواء كي يتسلل إلى رئتيها، و لكن ذلك لم يجدِ نفعًا ..

تستمر في البكاء،و يصبح لدموعها نحيبًا.. لم تعد تفهم نفسها.

تحاصرها التفاصيل..

لقد كانت دائمةَ البكاء، و هو على قيد الحياة أحيانًا كانت تظنه يطرب لبكائها من كثرة ما تسبب به، و لكن قلبها بكى كثيرًا، و مازال يبكي رحيله.

صرخت بصوت مسموع

- تبًا لقلوبنا التعسة.

كانا قد اقتربا من منزلهما، و قبل أن تدلف زوجته رفعت عينيها لشرفة المنزل أعلى البوابة، و شردت من جديد، و كأنها تذكرت شيئًا ما.

حاصرتها التفاصيل، و حاصرته.

تذكر كلاهما ذاك اليوم،و الذى ألقى فيه بطعام الغذاء من الشرفة

تذكر كم من المرات أخبرته أن ذاك اليوم كان يعلق في ذاكرتها، و أنه أسوء الذكريات التي مرت بها علي الاطلاق.

من الشرفة كانت حبات الأرز تتساقط واحدة تلو الأخرى و كأنما هي حبات مطر، و قطع اللحم تتلوها، و بعدهم الحساء، لم تخرج زوجته بعدها من البيت إلا و نظرات الجارات تتبعها، و يكثر فيما بينهن الهمز و اللمز..

كانت دومًا ما تتذكر ذلك اليوم، بالإضافة إلى اليوم الذي نقص فيه معاذ الدرجات الثلاث في الاختبار، لقد كانا من أقسي الأيام علي قلبها، وصار هو الآن علي يقين من ذلك.

نكست زوجته برأسها، و كأنما أصابها خذلان أكثر؛ كونها الآن قرب منزل خبرت فيه الكثير من الذكريات الحزينة و الخيبات.

أدارت المفتاح بالباب، و صعدا سويًا للطابق العلوي..

تركها و دلف يلقي نظرة على معاذ، كان الولد لا يزال نائمًا في فراشه بينما ظهرت بقعة كبيرة مبللة أسفله على الفراش تنبعث منها رائحة بول.

بكى بحسرة على أفعال كثيرة قد ارتكبها، و أكله الندم على أشياء أخرى لم يفعلها ...

حاصرته التفاصيل أكثر، و كادت تودي به من جديد.

تسلل بسرعة من بيته، و قد خلف ورائه زوجته و ولده، و عاد من جديد يرتكن للجدار الأخضر الباهت.

# ماریونیت

في تلك الليلة كان عادل يمضى في الطريق متوجهًا صوب الملهى الليلي، ذاك الملهي الذى لطالما وصفه له زملاء دراسته على أنه الأفخم على الأطلاق، و أن بداخله من الحرية، و التحرر ما يكفى لجعلهم ينسون الدنيا و ما فيها.

يتذكر كلمات صديقه رامي.. حين قال:

- لا أدرى للآن من صاحب الملهى، و على الرغم من أنني قد تعرفت إلى حبيبي هناك، و مازلنا نذهب إليه بين الحين و الآخر كي نستعيد ذكرياتنا، و لكنني على يقين تام من أنه أحدنا، فلا أحد يتفهمنا أو يشعر بهمومنا بتلك الطريقة إلا لو كان منتميًا إلينا، و أخذ رامي يحمسه لخوض التجربة.. مستطردًا:

أنصحك بالذهاب إليه هناك ستخرج من وحدتك، و تهدأ روحك التعبة و ربما تجد من ينتشلك من ذاك الصراع النفسي، و الذي ما زالت مغموس فيه منذ وفاة أمك لقد حاولت مرارًا أن أكون – أنا - ذلك الشخص بالنسبة إليك، و لكنك لم تكترث حينها، و ربما لم تنتبه عليّ. الأمر الذي جعلني أتخذ خطوات كثيرة للوراء، لم يكن نسيانك بالأمر السهل عليّ، لقد عانيت كثيرًا حتى قابلت الشخص المناسب.

حملق عادل حينها في عينيّ صديقه، و لم يكن يدرك تمامًا ما هو ذاك الشعور الذي يعتمل بداخله، فكلمات صديقه أشعرته بأمور خفية يجهل كنهها، و أحس حينها أنه ينجذب إليه، و لكن بداخله صوت أخبره أنه قد فقده للأبد

حينها نطق رامي من جديد مؤكدًا كلمات ذاك الصوت بداخله.

- نعم قد تكون قد فقدتني كشريك للأبد، و لكن انظر إليّ لقد وجدت أخيرًا الشريك المناسب لي، و نحن متناغمون نفسيًا و فكريًا منذ الوهلة الأولى التي تقابلنا فيها في الملهى..

باغته عادل.

- متناغمون نفسيًا و فكريًا، و قد تقابلتما في ملهى ليلي !!

**الماريونيت هي عرائس مصنعه، و تستخدم في عروض العرائس، يتحكم فيها الشخص، و يحركها كيفما يشاء من خلال يديه أو من خلال الخيوط.

جاوبه رامي.

- نعم إنه ليس ملهى ليلي بالمعني الدارج إنه أشبه بصالون ثقافي، و لربما يكون وثيق الشبه بمدرستنا تلك التي ربينا فيها، و استقينا منها أفكارنا..

مازال يتمشى عادل في طريقه للملهى.

شيء ما – قويًا – بداخله كان يرغمه على المضي قدمًا، و شيء ما لا يذكر من ذكريات طفولته، و أحاديث والده، و الذي كانت أمه دائمًا ما تصفه بأنه رجعي حين كان يعنفه على تصرفاته المستهترة يجعله يتراجع بعض الشيء.

ظل صوت نفسه الداخلي، و صوت أبيه يتصارعان طوال الطريق.. حتى وجد نفسه يقف مترددًا بباب الملهى الليلي.

توقفت عربة فيراري حمراء أمام باب الملهى، و ما هي إلا لحظات حتى ترجل منها شاب أنيق الملبس..

كان الشاب قد لاحظ بعين الخبير تردد عادل في وقفته بباب الملهى، و هو يعشق الرجال المترددين؛ كان يحس منهم طراوة طباع الأنثى، و نعومتها؛ فيثيرون شبقه أكثر.

حينها ضغط ريموت السيارة بخيلاء؛ ليغلقها، و أشعل سيجاره متجهًا صوب عادل، و الذي كان ما يزال واقفًا بالباب.

وضع الشاب يديه على كتف عادل بحنو بالغ، و مازحه قائلًا:

- هل تخشى الدخول؟!

حينها تلعثمت الكلمات على شفاه عادل فلم يستطع سوى أن يجيبه بخجل،

- لا .. ليس الأمر كذلك.

جذبه الآخر من يديه للداخل.. قائلًا:

- إن لم يكن كذلك.. فماذا إذًا؟!

سار عادل خلفه منقادًا، و قد خفت صوت أبيه بداخله تمامًا.

في الداخل جلسا سويًا إلى طاولة واحدة، و راحا يتجاذبان أطراف الحديث سائله المترجل من الفيراري بعينين زائغتان.

- فيم كان وقوفك على الباب؟!

فأجابه عادل:

- إنها المرة الأولى التي آتي فيها إلى هنا، و لم أكن أعرف المكان جيدًا لقد قدمت بناء على نصيحة صديق.

باغته الآخر بابتسامة فهمها عادل جيدًا، و بعدها أمسك بكفه الموضوعة على الطاولة.. قائلًا:

- هذا من حسن حظي؛ أن أكون أول من تتعرف عليه ها هنا، و أتمني أن أكون الأخير.

لم يجبه عادل سوي  بابتسامة خجلي.

كان مالك الملهي يجلس في غرفة الإدارة يتابع الصالة، و يتابع عماله و زبائنه.

لمح الطاولة التي كان يجلس إليها عادل، فعاودته ذكرى ذلك اليوم الذي كان يجلس فيه في غرفة الإدارة بالمدرسة، و يتابع طلابه و معلميه.

لقد تذكر ملامح عادل جيدًا، و لكنه لم يستطع تذكر اسمه؛ فملامحه الصغيرة قد كبرت على وضعها، و هو الآن شاب يافع؛ و لكنه في ذاكرته مازال ذاك الطفل الوديع، و الذى أشعل حفل المدرسة التنكري بفستانه الأسود.

هزأ صاحب الملهي في نفسه.. قائلًا:

- ما أشبه اليوم بالبارحة !!

في الصالة كان النادل قد اقترب من الطاولة، التي يجلس عليها عادل و رفيقه..

سألهم عن طلباتهم؛ فتلعثم عادل من جديد،و حينها أمسك رفيقه بـ (المنيو).. قائلًا:

- دعني أختر لكَ، فما كان من عادل إلا أن ابتسم ذات الابتسامة الخجولة، و ترك الأمر له.

انتهيا من جلستهما، دفع رفيقه الحساب كاملًا رغم كون عادل قد حاول ألا يحدث ذلك، و لكن الأخر أصر على موقفه، و هَمَّ الاثنان بالخروج.

عرض عليه رفيقه أن يوصله للمنزل، فوافق عادل على استحياء كان حياء عادل، و موافقته المخاتلة على أمور عدة يغذيان لدي الأول شعورًا بالانجذاب إليه.

أمام منزل عادل توقفت السيارة، فمنحه الأخر قبلة دافئة على خده.. متسائلًا:

- هل تحب أن أصعد معك؟

تريث عادل في الجواب للحظة؛ فقد عاد صوت أبيه الخافت يراوده من جديد، و لكنه أومأ براسه علامة على الموافقة

ترجل الأخر، و صعدا سويًا الدرج في هدوء بالغ.

في شقته عرض عادل على رفيقه أن يشربا سويًا كوبين من العصير فوافق، و بينما يعد عادل العصير جذب الآخر (فلاش ميموري) من جيبه، و وضعها في المكان المخصص لها بشاشة التلفاز، و قام بتشغيل فيلم يعرفه جيدًا.

كان فيلما رومانسيًا صنعته إحدى شركات السينما الشهيرة خصيصا لأجلهم، لأجل من لديهم هذا الشغف بمثيليهم.

جلس يطالع التتر في حين عاد عادل، و معه أكواب العصير، جلس بجانبه، راح يتابع التلفاز مسلوب الإرادة.

جذبه المترجل من الفيراري ليرتكن بجسده إليه، و لم يكن الفيلم قد مر من وقت عرض الفيلم سوي نصفه.. حين شرع في ملاطفته، و راحا يتلامسان بشغف صحبه شبق و عنف من الأول.

في فراشه نام عادل ليلته، تسلل رفيقه – قبيل الفجر - عائدا لمنزله، و بينما هو ينزل الدرج مسرعًا كان الآذان قد ارتفع.

**على جانبه الأيسر**

دلف عادل مع أمه، و كان ما يزال في سن العاشرة إلى متجر الأزياء التنكرية. كان المتجر متسعًا، و مكتظًا بالأطفال.

حول مسرح صغير في وسط المتجر. التف أغلب الأطفال على شكل حلقة منبهرة حول مراهق راقص، كان المراهق يرتدي زي أميرة أوربية من العصور الوسطي، و على رأسه قبعة أنيقة، و وجهه مكسو بالكثير من مساحيق التجميل، و يرقص الكلاكيت باحترافية شديدة.

انبهر عادل يومها بالعرض، و أنسل من أيدي أمه ليلتحق بالأطفال، و راح يتابع الرقصة بشغف شديد.

كانت تنورة المراهق المنتفخة تتطاير يمينا و يسارا، و هو يرقص في حين يعلو صوت الموسيقى و يهبط.

انتهى الراقص من استعراضه ليصفق له الأطفال تصفيقًا حادًا، و بعدها تحلقوا حوله لالتقاط الصور.

لمحت عادل أمه و عيناه الصغيرتان تتسعان، و رقبته تكاد تدور حول نفسها دورة كاملة، وهو يراقب المشهد بشغف.

ربتت على كتفه ثم أمسكت بيده اليسرى، رفعتها في الهواء، و ببسمة عريضة جذبته...

- يلا.. يا بطل.

أخذته أمه و اقتربت من المراهق أكثر؛ كي تتمكن من التقاط صور لثلاثتهم، و بعدها خرجت من الكادر لتلتقط الصور لهما سويا.

مال المراهق بميوعة تجاه عادل في نفس الوقت الذي ضغطت فيه أمه زر الكاميرا.

انتهيا و ذهب مع أمه؛ كي يختار زيًا لحضور حفل الهالوين في مدرسته.

توقف أمام فستان ساحرة أسود وسرح بخياله.

رأى زملائه، و هم يتحلقون منبهرين، و يلتقطون الصور فتأكد أنه هذا هو الاختيار المناسب.

ما إن فرغا من الاختيار حتى التقطت أذن عادل صوت خافت لامرأة تعنف طفلها، بينما كان الأخير يبكي.. قائلة:

- اتركه جانبًا.. ثمنه مبالغ فيه...

استدار لمصدر الصوت، فرأى ولدًا في نفس عمره، و قد أحمر وجهه من الخجل.

ظل الولد يدير عينيه في المكان بأسره؛ كي يتأكد أن لا أحد من أقرانه سمع من حديث أمه ما قد يوشى بفقرهم.

أسرع عادل الخطي ليلحق بأمه التي كانت قد همت بالخروج من المتجر.

ها هي تقف أمام ( الكاشير) بأريحية شديدة، و تدفع ثمن الثوب الذى اختاره بنفسه، و كان مبالغ فيه أيضا، و لكنها لم ترفض له طلبًا قط، كانت تحب دومًا أن تراه متألقًا.

في طريق عودتهم أوصته ألا يخبر أباه بأية تفاصيل عن الزي، و فعل ما أوصته به..

فأباه بالنسبة إليهما مصدرا للصداع، و لوجع رأس لا ينتهي..

كانت استفسارات أبيه الكثيرة، و رفضه غير المبرر لأمور أكثر؛ هو ما جعل لعادل مع أمه أسرارهم الخاصة.

**على جانبه الأيمن**

حرصت أمه على أن تكون هيئته في الحفل المدرسي متناسقة جدًا، تعاملت مع الأمر بحرفية شديدة، تمامًا كما كانت تتعامل مع مجلة الحائط التي كانت مسئولة عن تنسقيها في سنوات دراستها الجامعية.

أفاقت من فراشها خلسة، في هدوء جمعت كل مساحيق تجميلها كاملة، توجهت لغرفة عادل، و شرعت في تزيينه كفتاة جميله..

انتهت لتمزح بضحكة صاخبة:

- لا أحد اليوم سيراك رجلًا.. هاها.

صعد عادل سلم المدرسة المزين بـاليقطين المضيء، مرتديًا فستان الساحرة التنكري كان صوت دقات كعبه العالي على الدرج؛ يبعث بداخله غرورًا خفيًا جعله – ذاك الغرور- يتمايل بغنج في مشيته، و انتهى به الأمر إلى قاعة الحفل.

لفت دخوله للقاعة أنظار الجميع.

فالحفل قد بدأ، علا صوت الموسيقى الصاخبة، و انتشر الدخان ليعم المكان. كانت الأجواء تشعره بالدفء بينما هو في وسط المشهد يتراقص مرتديًا فستانه التنكري متقمصًا دور ذلك المراهق بالمتجر.

لمحه مدير المدرسة، و هو جالس على كرسيه الفخم، يرقب الجميع؛ فانبهر بفستانه الأسود، و رقصه المميز، و قام متجها إليه..

اقترب الرجل من عادل، و نقر بإصبعه على كتفيه ليكف عن الرقص للحظة و يستدير ثم غمزه بعينين غامضتين، و وجه تعلوه ابتسامة.

- تبدو رائعًا.. استمر.

ما إن ابتعد المدير حتى اقترب منه شخص ذو ملامح غريبه، كانت تلك بالنسبة لعادل المرة الأولى التي يراه بها، و لكن شيئًا ما أخافه منه؛ حاول عادل أن يتخذ خطوات للوراء، لكن الآخر بادره بركلة عنيفة في موضع رجولته، و أحكم قبضته حول رقبته.

اشتد صراخه، ولكن الراقصون حوله لم يحاولوا إنقاذه. كان كل منهم يدور في فلكه الخاص.

حينها فقط صدرت منه صرخة مدوية. استفاق على إثرها، و كأنما أفاق لتوه من تأثير التنويم المغناطيسي..

أفاق على أوجاع عدة ..

منها ألم الوخز ، و خدل في ملامح وجهه إثر صفعات تلقاها ليلة أمس، كانت الدماء المتناثرة فوق فراشه؛ تشي بما قد حدث بينه و بين رفيق الملهي ليلًا.

لاح أمامه وجه أبيه جالسًا على كرسيه الخشبي في شرفة منزلهما

ها قد بلغ عادل الخامسة و العشرين و ما عاد أباه يراه أو حتى يحادثه هاتفيًا؛ فقد تنكر لأفعاله، و تزوج من أخرى ثم سافر بعيدًا؛ بعد أن فاضت روح أمه إلى بارئها.

حدثه طيف أبيه بأنين مكتوم، وهو ينظر بعينيه للبعيد

- لو كانت امك سمعت كلامي، و قدمنا لك في مدرسة مختلفة لما وصلت الأمور لهذا الحد

زم عادل شفتيه

- ليت الزمن يا أبي يعود للوراء.

مازال عقل عادل مرتبكًا لم يستطع تقبل ما حدث البارحة بسهولة فلطم خديه بعنف شديد مرارًا و تكرارًا، اشتد الألم على وجنتيه أكثر فهدأ ليتساءل:

– هل الأزمة كلها كانت في مدرستي كما كان يظن أبي؟!.

تتراءى أمام عينيه اللوحة الحمراء القاتمة المموهة بالأسود .. على بوابة المدرسة بلغة أجنبية، خط عريض مائل، تحوي اسم المدرسة و كلمة ترحيبية

عاد طفلًا يتجول في طرقاتها..

بالنسبة إلينا كأطفال ..كان الدخول من بوابة المدرسة بمثابة الدخول للجنه.

لم تكن هناك قيود.. ولا ضوابط.. لا تابوهات...

كنا ننهل من كتب اختيرت- لنا- بعناية، كانت جميعها ذات أغلفة حمراء.

لماذا كانت كلها حمراء؟!.. لا أدرى، و لم أتسأل حينها عن السبب.

كان أبي مستاء لأن المدرسة لا تعلمنا العربية، و كانت رسوم دراستي تثقل كاهليه.

رنين صوت أمه حين كانا يختلفان على هذا الأمر .. مازال يصفر في أذنه.

- لم تعد لغة مهمة.. كفاك أوهامًا.

بعدها كانت أمه تدلف للمطبخ تصنع فنجان من القهوة لتحتسيه ثم تشرع في الصلاة؛ لتهدأ روعها من ثقل إلحاح أبيه، و لكنها تفرغ من صلواتها.. لتقول:

- يا حبيبي ..تعليم أجنبي، على مستوىً عالٍ؛ هذا ما يليق بزمانهم.

كانت تزعم أنها تنظر للأمام، و أقنعتها صديقاتها بذلك كثيرًا، لطالما كانت تذكر أسماء صديقاتها حين يتشاجران سويًا على أمر ما، و خصوصًا تلك الأمور المتعلقة بشئون عادل و مدرسته؛ فالكثيرات منهن كان أولادهن يدرسون في ذات المدرسة أو مدارس مشابهة.

بينما كان أبيه على بساطته يوقن.. أن المدرسة تفسد كل ما حاول جاهدًا أن ينشئه عليه.

ينتهي عادل من الترجل في طرقات المدرسة، و يدلف إلى صفه ..

كان عدد طلاب الصف لا يتجاوز العشرين

لا زي موحد؛ فالفتيان كانوا يتباهون على صغرهم بأفخم الماركات، و تتبارى الفتيات منهن إضافة للماركة بمن يكون عريها أجمل.

تنسدل من غرفة تحكم أعلاهم شاشة..

تعرض إحدى القصص التي يدرسونها برسوم كرتونية

يتبادل الأبطال القبلات، و الأحضان المثيرة في أغلب الأحيان يكون الزوج متماثلًا، و تلبسه القصص ثوب البطولة..

ترفع الشاشة من أمام عينيه.. فجأة؛ فينتبه من شروده و يعود ليتحسس أثار الصفعات التي تلاقاها من رفيق البارحة متأوهًا، فقد كانت موجعة فوق الاحتمال تساءل في نفسه:

- لماذا كان همجيًا هكذا؟!.. على الرغم من أنه كان لطيفًا في بداية تعارفهما، كان لطفه هذا ما أغرى عادل بالتجربة!

آلمته جراح وجهه أكثر فتذكر صفعة أبيه، و ضربه المبرح له حين رآه يقبل ابن الجيران و صدر منه آنين مكتوم ثم راح يجمع خيوط اللعبة في رأسه.

ما بين كره أبيه للمدرسة.. و ما قد تعلمه فيها.

أخذ عادل يحرك رأسه مستنكرًا

يصفعه أبيه على خده الأيمن، بينما يكيل له رفيق الأمس الصفعات على كلا خديه.

توقف عن تحريك وجهه ثم أغمض عينيه، وأخذ نفسًا عميقًا.

بدا السواد الحالك الذي ظهر أمام عينيه المغلقتين باعثًا على السلام النفسي؛ فاستمر في إغلاقهما لوقت ثم باعد ما بين أهدابه ببطء، و التقط موس حلاقة من (الكومودينو) على يمينه وأضاف للدماء المتناثرة فوق فراشه .. بحرًا من الدماء.

# وصايا الجد العشر

في الصباح يتخذ مقعده في الساحة الكبيرة، و التي تتوسط حديقة قصر جده الباشا تحيطه الأشجار النادرة من كل جانب، يتطلع إليها و يتأملها متعجبًا لأمر جده؛ فقد كان جده بالنسبة إليه شخصًا غريب الأطوار من الممكن أن يسحق أحدهم لأجل شجرة أو حجر مهما كانت درجة قرابة هذا الشخص منه.

يلتفت فيلمح سيارة الباشا، و هي تتوقف أمام باب القصر، و كأن محركها قد أطفئ للتو يفتح السائق بابها، و يترجل منه الباشا بعنفوانه المعروف، فتهتز جدران القصر لحضوره و يرتعش جسد جميع من بالقصر.

في خفة يضع الخادم فنجان القهوة أمامه، و يسأله إن كان يريد شيئًا آخر..

يجذبه صوت الخادم من خيالاته فسيارة الباشا بالجراج و لم تتحرك منه في انتظار عودته، و هي تقف هذه الوقفة منذ ارتقى.

يهزأ قائلًا في نفسه:

- ما لعائلتي تتعامل مع الباشا، و كأنه المهدي المنتظر !!

أجلس في حديقة القصر يوميًا، و لا أدرى لما؟!.. فأنا الوحيد من بين أفراد العائلة الذى يفعل ذلك، من هذه الطاولة أظل أرقب القصر لقد بلغت العشرين من عمرى، و ما زلت أبحث عن تلك الحفرة في الحديقة، و التي أمر جدي بحفرها؛ ليدفن فيها ابن أخيه..

فالعائلة تتناقل همسًا فيما بينها أن رفاته هنا تحت إحدى تلك الأشجار الاستوائية، و لكنني لا أعتقد بذلك؛ فتلك الرفات مدفونة بعقولنا هناك في تلك الخلايا المسئولة عن التذمر فحين يحاول أحد أفراد العائلة أن يخالف إرادة جدي في أمرٍ ما، و لو كان هينًا .. يعلو آنين الرفات بعقله؛ فيتراجع عن الأمر.

ما زال قصر جدي مترامي الأطراف كما عهدته منذ ولدت، و رغم أن قصور لباشاوات كُثر في المنطقة قد اقتطعت مساحتها؛ لأعمال خاصة بالحي، و لكن قصر جدي لم يقتطع من مساحته شبرًا واحدًا و لا أدرى لما!!

- هل كان أنين الرفات يعلو في عقل موظفوا المدينة حين يفكرون بالأمر؛ فيتراجعون؟!..

ليس للأمر تفسير آخر، فهم الآن أصبحوا يطلقون عليه إقطاعيًا، و لكن حين كان حيًا لم يكن الأمر كذلك كان الجميع في البلدة يهابونه و يأتمرون بأمره...

ها هو القصر واقفا بشموخ، و كأن جدي لم يبرحه يومًا

لهذا القصر طراز مميز من العمارة يجعلك تستطيع أن تميزه من بين عشرات القصور

فالجدران صارمة مثل جدي تمامًا، و عليها نقوش كثيرة غريبه و مميزة في آنٍ واحد

في عائلتنا لم يكن أحد يستطيع تفسير تلك النقوش، و لكنهم يتناقلون أمر أن جدي قد أملى تفاصيلها كاملة على البنائين، و الذين لم يعترضوا بدورهم، بل نفذوا كل أوامره بالحرف.

هل كان من الممكن للبنائين أن يعترضوا، و أن يبقوا على قيد الحياة بعد أن يبثوا جدي اعتراضهم هذا؟!... لا أظن.

بين الحين و الآخر أقف أمام تلك النقوش، و أحاول أن أستفهم ما قصده جدي من ورائهم، و لكنني لا أصل لأية تفسير يُذكر، و كان هذا الأمر متوقعًا؛ فقد كان جدي ينعت الجميع من حوله بالأغبياء، و حتى أولاده لم يسلموا من لسانه السليط و أنا من أكون لأفهم ما عنى!!.. لست سوى حفيد من أحفاده.

أظل أتابع النقوش حتي يصيبني اليأس، و أعود لغرفتي؛ فقد كان جدي لغزًا كبيرًا، و لكن أحد من أبناءه و أحفاده أيضًا لا يجرؤ على التلميح بذلك الأمر؛ فقد ربينا على الصمت و الطاعة، و كانت تعليمات الجد صارمة طيلة الوقت.

ذات مرة لمحته يدق بقاعدة مسدسه على منصة القاعة الكبيرة مهددًا أعمامي و عمتي، وأخويه اللذين لم يتركا القصر .. قائلًا:

-إن كان لديكم عقل؛ فإن إعماله في أوامري؛ سيكون له عواقب وخيمة. يكفيكم هذا العقل في غرفكم أما هنا فلا أريد أن أسمع صوتًا.

كنت طفلًا ألهو خارج القاعة يومها لمحته، و لكنه لم يلمحني؛ فاختفيت مسرعًا عن المشهد، و منذ ذلك اليوم تعلمت ألا أخرج من غرفتي؛ حين أعلم بأن هناك اجتماعًا للعائلة.

ها أنا ذا أصعد السلم الخارجي للقصر، و أدلف للداخل بهدوء.

أصعد بطريقه كانت عمتي تجبرني عليها طوال الوقت؛ فقد كانت تسلط عيناها عليّ دائمًا حين صعودي، و تصيح بي باستنكار.

_ ياولد ..اطلع السلم على طريقه جدك الباشا.

كانت عمتي تحاول إيصال الفكرة إليّ، فتروح تخطو أمامي على السلم، و تمثل طريقة الصعود؛ كي أفعل مثلها.

حين كنت أراقبها، و هي تتحرك تلك الحركات. لم أشعر، و لو لوهلة أنها عمتي؛ فقد كانت في نظري الصغير لا تعدوا أن تكون قائد حرس القصر.

ها أنا ذا أصعد السلم بتؤدة شديدة، و كما كان يفعل جدي شامخ الأنف، و مرفوع الرأس.. مفرود الأكتاف، كان عليّ أن أركز في صعودي للسلم أكثر مما عليّ أن أفعل لو كنت بصدد اختبار؛ فالاختبارات تجرى على منضدة، و يجلس الواحد منا أمامها مستويًا، و أما السلم فلابد أن تصعده شامخ الأنف، و تحرص على ألا تنكفأ؛ فليمحك الخدم؛ فلذلك الأمر عقوبة وخيمة.

أُلقي نظرة على عمتي، تتلاقى عينانا؛ فتهاجم ذاكرتي صورة الجد بعدما وارياه التراب..

كان متمددًا في كفنه الحريري. بغير حول أو قوة، كان بيد التربي وقتها أن يقلبه ذات اليمين، و ذات الشمال، و لكنه لم يعبأ للأمر؛ فقد وضعه على جانبه الأيمن، و انتهي كل شيء.

لم يعد الباشا بكل هذا الشموخ.

هل لاحظت عمتي ذلك؟!.. ربما لا، و لكن ماذا لو كان الجد لو كان يستطيع العودة – ها هنا- من جديد؟!.. لربما انطفأت روحه حينها، و استطاع أن يقدر الأمور بقدرها.

أنا الآن في الطابق الأول من القصر، هذا الطابق مكون من قاعات عده، و اينما تولى وجهك فثم صوره الجد كانت صوره جميعها تتراص بشكلٍ مرتب..

فهذه صورته و هو يرفع أبي عاليا في الهواء، تلك صورته بملامح متجهمه و هو يشير بسبابته للأمام، و أخرى و هو رافع يديه عاليًا بخيلاء. حين كان يخطب في أفراد العائلة،

و في بهو الطابق ينتصب تمثالًا للجد. نحته أشهر نحاتي المدينة قسرًا.

كان قاسم الصباغ من أشهر نحاتي البلدة، و له منحوتات عدة، تأخذ مستقرها في ميادين المدينة، و لكنه بعد أن نحت تمثال جدي راحت البلدة بأسرها تتناقل عنه أخبارًا غريبة.

هناك من يقول أنه لم يعد يرغب في العمل قط منذ أن نحت تمثال جدي، و أخرون يتناقلون أنه قد تعرض لحادث ما قطعت يداه على إثره؛ فعاش حزينا حتى قضى هو الآخر.

لا أعرف لماذا يصاب جميع المبدعين، الذين يتصدرون لأعمال عظيمة لأمور كهذه، و هل كان تمثال جدي هذا عظيمًا لتلك الدرجة؟!..

في داخلي أرجح أنه قد تعرض لحادث، أن جدي من افتعله، هو من أوصى بقطع يديه، لا أدرى لماذا يعتريني هذا الهاجس، و لكنني على يقين من أن الأمور جرت هكذا حينها.

ها هي عمتي تقف بخشوع تام أمام التمثال، و كأنما هي واقفة لتُصلي؛ فهي تشعل الشمع، و تبتهل بالنشيد الذى حفظها إياه جدي..

في الخلفية كان الخادم الصغير ينظف باب القاعة الكبرى، برهبة شديدة. بينما يدلف أباه إلى الداخل، و ينظف ما حول التمثال المبهم؛ ذلك الذى ينتصب داخل القاعة الكبيرة، كان التمثال مغطي منذ ما يقارب السبعون عاما، و كان غطاءه سميكًا جدًا.

لم يكن الغطاء من ذلك النوع الذى يوحي بما أسفله.

كان الجميع يخشون الاقتراب من التمثال، و كان عملًا مضنيا للخادم الأب؛ أن ينظف غطاء مبهم على مر هذه السنون؛ دون أن ينزعه أو يدرك كنه ما يخفيه أسفله، و لكنه كان يفعل؛ فالأوامر كانت شديدة الصرامة، و قد ورث الخدم الأوامر كما ورثناهم نحن هم وأبنائهم.

كم من مرة راودتني فكرة نزع الغطاء، و لكن أنين الرفات كان يصدني؛ فأتراجع عن الأمر.

ألمح الآن الخادم الأب، و هو يراقب عمتي، و يتابع التنظيف بحرص شديد، و كأنما هو متجمد بجوار التمثال.

- هل كانت تعاوده ذكري تلك القصة؛ فهي دائمًا ما تعاودني؛ حين ألمح رعشة يده.

فحين لمح جدي أحد أطفال أخيه يأخذه الفضول تجاه التمثال أمر حراس القصر بحفر خندق في الساحة الكبيرة، و من يومها لم يعد أحد يرى ابن أخيه هذا، و لا حتى أخيه؛ فقد رحل بعيدًا تاركًا القصر، و كل شيء خلفه.

لقد توارثنا قصة جدي مع ابن أخيه جيلًا بعد جيل. فلم يعد أحد يجرؤ قط؛ على الاقتراب من هذا التمثال.

تجتمع عائلتي مره في العام؛ لمناقشة شئون القصر، و إدارة فتات الثروة التي خلفها الباشا لنا؛ فقد كان شديد الثراء، و الإسراف في آنٍ واحد.

أحيانًا كنت أتلصص على أبى عامدًا، و ليس بمحض الصدفة؛ فظروف حياة كتلك التي أعيشها؛ جعلت التلصص يجرى في مجري الدم من العروق.

يتبسم في نفسه لوهلة.. قائلًا:

- أحيانا كنت أتلصص على متلصص آخر!!..

ذات يوم تهادى إلى سمعي أن لجدي أبناء غير شرعيين كثر، و لكنه لم يعترف بأحدهم يوما؛ فقد كان يرى الأبناء الشرعيين؛ هم الأجدر بحمل الأمانة.

كل شيء في القصر كان يسير وفق ما أراد جدي ، حتى خدمنا يعدون الطعام بالطريقة علمهم إياها بلسعات سوطه، وطبقه الذي مازال يوضع يوميًا على رأس المائدة، و لا أحد يجرؤ على الأكل منه أو على الجلوس في الكرسي المواجه له.

هل تنتظر عائلتي أن تتنزل علينا روح الجد!!

أحيانًا يبدون لي، و كأنهم مخبولي العقول..

أتمعن في القاعة الكبرى، و أحاول أن أكشف بعيني ستر التمثال المبهم تحت الغطاء السميك.

- ترى ماذا يكون، و ما سر لعنته تلك إن كانت له حقا لعنة !!

يلمحني أبى فينهرني لأبتعد، و لا أدرى هل يفعل أبي ذلك خوفًا عليّ أم إذعانًا لأوامر الجد، و لكن

صوت أبى يجعلني أرتعد بداخلي تمامًا كما كان هو يرتعد من صوت جدي. حين ينهره؛ فأنتبه،

وأستمر في الصعود.

أمر في طريقي لغرفتي في الطابق الثاني على القاعة الوسطى، ففي بهو كل طابق توجد قاعة، كانت ألوان طلاء تلك القاعة غريبه، و مقززة بعض الشيء..

لكن هكذا كان الباشا مزاجيًا و صارمًا في كل الأمور، و لا يعنيه سوي رأيه فقط.

فتموجات الأحمر في الأبيض على جدران القاعة كانت تستفز كل من يراها، و لكن أحد لم يقدر على التصريح بذلك الأمر.

على رأس القاعة .. يستقر حامل عاجي ضخم مرصع بالألماس تُرى كم عدد الأفيال التي قتلت، و انتزعت أنيابها؛ كي يستطيع جدي اقتناء هذا الحامل، يختلط آنين الأفيال في رأسي بأنين الرفات.

أهز رأسي طاردًا ذلك الأنين .

فوق الحامل يستقر كتاب مفتوح كان هذا الكتاب يحوي تعاليم للجد.. أملاها في حياته على أشهر الصحفيين في المدينة؛ ليكتبها بلغة رصينة لا يستطيع الزمن أن يمحوها.

كنا و مازلنا نسير على تعاليم الجد، لم نجرؤ أن نخالفها يومًا.

يحفظ أبى وأعمامي وعمتي وأبناء عمومتهم القوانين عن ظهر قلب؛ و ذلك رغم كونها تشدهم للوراء، و نحن أيضًا على إثر آباءنا نتبعها، و يجبروننا في الصغر على أن نحفظها عن ظهر قلب كما يحفظ الصغار الكتب المقدسة.

كلما حاولت أن أصعد السلم مسرعابعض الشيء. يطاردني شبح عمتي؛ فأسير بذات التؤدة.

أنا الآن أمام غرفه والداي.. إنها بجوار غرفتي..

أتذكر حين كنت طفلا، و اقتربت من بابها ليلا ذات مرة، حينها سمعت صوت كركبة شديدة

بالداخل و استنكرت أمي؛ كون أبى قد هب من فراشه، و يرتدي ملابسه مسرعًا.

كان صوت أمي متهدجًا ممتزجًا بنعومة.. سألته:

- حبيبي ماذا بك؟

جاءها صوت أبى متسترًا بستار الخوف.

- لا شيء.. فقط يبدو لي أن الباشا على الباب.

لم أراهما حينها، لكنني تخيلت وجه أمي، و هي مشدوهة في فراشها، تتطلع لما يفعله أبي، و تلملم أذيال خيبتها؛ فلا شيء أكثر سوء في الدنيا من أن يهب الرجل من فراشه تاركًا زوجته لأي سبب كان.

ذهبت يومها لغرفتي في لمح البصر، و بعدها سمعت صرير باب غرفه أبى، و هو يفتحه ليعرف من بالخارج، و بالطبع لم يجد جدي، و لم يجد أحد.

عاد أبي إلى فراشه في تلك الليلة، و لكنه لم يعد لأمي.

كان ذلك باديًا على وجهيهما صباحًا على مائدة الإفطار.

يصل إلى أذني صوت أعواد الكبريت الضخمة.

أتطلع بعيني للأسفل ..

مازالت عمتي واقفة أمام تمثال الباشا تشعل الشموع..

يسمع الجميع هنا دقات قدم جدي الصاعدة والهابطة من الجناح العلوي على السلم الرخامي في مواقيت بعينها.

في الصباح يسمعون دقات هبوطه، و في المساء دقات صعوده .. و في الخامسة تتجه قدميه لإحدى القاعات.. ليجتمع بالعائلة.

في القاعة الكبرى كان جدي يجري اجتماعًا دوريًا للعائلة.

كانوا يتحلقون جميعا حول التمثال المغطى، و الذي نُصِبَ غطاءه عاليًا على شكل مربع، و يتناقشون في أمورٍ عدة؛ كي يرضوا غرور الجد، و لكنهم في نهاية الأمر يقرون ما يراه هو فقط.

و في القاعة الوسطي ..

كان جدي يناقش كل المعاملات المالية للعائلة، ما ينتجون، وما يبيعون، وبكم يبيعون، ولمن.

ما زالت عائلتي تجتمع في ذات القاعة بين الحين والآخر؛ لمناقشة تلك الأمور.. يخيل إليهم أن روح جدي تتحوطهم.

أغلق باب غرفتي، و أتمدد على الفراش بيني وبين سقف غرفتي حكايات لا أستطيع قصها على أحدٍ أبدًا؛ فقد كان أبي يمنعني من مصادقة أيًا من زملاء دراستي؛ كونهم من أبناء العامة، وأنا نبيل بن نبيل أحيانًا أود أن أشكر سقف غرفتي لأنه لم يفشي لأبي بأمر صداقتنا.

بينما هو كذلك..

يأتيه صوت قرع خفيف على الباب، و تلقائيًا يَسمح لمن على الباب بالدخول.

يدلف الخادم للغرفة، و يسلمه دعوة بعثها عمه الكبير لكل أفراد العائلة يدعوهم لاجتماع هام في تمام الخامسة.

ينزل الدرج في الخامسة والربع، و لكنه لم يحضر الاجتماع، و لم ينتوي الحضور، و كان يعلم أن عواقب هذا الأمر أوخم من عواقب الانكفاء أمام الخدم.

يسترق السمع و يحاول أن يستكشف الأمور دون أن ينتبه أحدهم لأمره ها هم الآن يجتمعون في القاعة الكبرى، يتباحثون أمر ترميم القصر، ينتصب التمثال أوسطهم على إبهامه و غموضه؛ كمعبود يخشون الاقتراب منه.

يتهادى إليه صوت أبيه يعلو على استحياء.. قائلًا:

- إن لم يرمم هذا القصر سينهار علينا.

تبادره عمته..

- لم يردنا أثر من أبينا؛ نستطيع أن نقرر بناء عليه ها الأمر.

فيجيبها أحد أبناء عمومتها

- لسنوات تراخينا، و لم يعد هذا الأمر في صالحنا بعد الآن.

ما كاد يفرغ من كلماته حتي رمقه أحد أخواته بنظرة تفهمها جيدا؛ فصمت ولم يستطرد؛ لقد ذكره بابن عمهم الآخر في الخندق.

أصبح القرار في النهاية لعمه الأكبر و عمته.

فقد فوضهم الجميع قائلين:

- الأمر لكما.. افعلا ما ترونه صوابًا.

لكن القدر لم يمهلهم هذه المرة؛ لاستكمال الحديث أو الوقوف على قرار.

اهتز القصر هزات عنيفة لم يصدقها أحدًا منهم، ووقفوا يتطلعون إلى الجدران مشدوهين، ولم يبرح أحدًا منهم مكانه.

و لكنه هذه المرة لم يحضر الاجتماع،كان وقوفه على السلم في صالحة،فعلى عكس العادة؛ لم ينهره أحد هذه المرة، وهرول مبتعدًا تجاه لساحة الكبيرة.

و ما هي إلا لحظات؛ حتى انهار القصر بأكمله أمام عينيه، كانت الجدران قد غطت العائلة المشدوهة بأسرها، و لكن التمثال المبهم بقى شامخا، و قد انحسر عنه غطاءه.

كان التمثال محاط بقوائم حجريه أربع تتخذ شكل إطار واقي لكف مقبوض يقف إصبعه الأوسط منتصبًا.

بتوقيت كييف

10- أيار- 2021

لم يكن ذلك اليوم يومًا عاديًا بالنسبة إليها، و لا لمن تبقى من أسرتها؛ لقد كان الذكرى الأولى لرحيل والدها والذي رحل كمدًا على رحيل أخيها الأكبر؛ فقد قتل غدرًا برصاص قوات الاحتلال وهو في طريق عودته للمنزل.

تتذكر ليان أحداث ذلك اليوم – يوم وفاة أخيها - بكل تفاصيلها، وكأنها تعرض أمام عينيها لحظة بلحظة، و لكنها تحاول جاهدة أن تتناسى؛ كي تنتشل أمها وأخيها الصغير من غياهب الحزن؛ فهما كل ما تبقى لها في الحياة.

كانت تستذكر دروسها، و سمعت صوت خبطات متواترة على الباب. بينما تقوم أمها ببعض الأعمال المنزلية في بهو المنزل، و أبيها مستلق على فراشه؛ هرعت أمها صوب الباب لتفتحه . في نفس اللحظة التي وصلت فيها ليان للبهو، و كانت تنتوي – هي - أيضا فتح الباب؛ لترى من بالخارج.

ما إن فتحت أمها الباب حتى رأت كلتاهما عشر من شباب الحي يحملون جسد مضرج بالدماء دلفوا به للداخل، و وضعوه على الأريكة.. في البهو.

كان هذا جثمان أخيها الأكبر.

في الصباح حياهم زياد و خرج لعمله، و ها هو قد عاد، في ذات الموعد الذي يعود به يوميًا، و لكنه عاد جسدًا هامدًا.

يومها راحت أمها تصرخ بكل ما أوتيت من قوة، لطمت خدودها، أمسك أحدهم يديها عن اللطم في حين هب أبيها من فراشه فزعًا؛ على صوت الصراخ .

بكت ليان أخيها لوقت طويل، و لكن بكاءها كان مكتومًا في حين وقف أباها أمام المشهد صامدًا كاتمًا حزنه؛ حتى نهش الحزن قلبه، و تملك منه فقضى نحبه.

ما زالت الأريكة ببهو المنزل تعلوها دماء أخيها؛ فالبرغم من مرور خمس سنوات على رحيله لم تحاول أمه غسل دمائه من عليها، و لم تدع أحدهم يقرب منها.

تتذكر ليان يوم وفاة أبيها كانت نسوة الحي تطلبن من أمها غسل الدماء، و راحوا يخبرونها أن تلك هي سنة الحياة، و لكنها كانت تخبرهم أنها سنة الحياة فعلًا؛ إن لم يكن ابنها البكر قد مات غدرًا. أما و قد مات غدرًا، فهذه سنة استنها أولاد الزنا.

تتذكر ليان كلا اليومين – يوم عاد أخيها مضرجًا بدمائه، و يوم وفاة و الدها- بكافة تفاصيلهما. كانت تزور قبريهما بين الحين و الآخر، دون أن تخبر والدتها بالأمر، و حين تطلب أمها منها ذلك كانت ترفض متعللة بكل عِلَّة؛ تستطيع بها أن تثني أمها عن تلك الزيارة فمرة تقول:

- يا أمي زيارة القبور غير مستحبة.

و أخرى تقول:

- لا داعٍ للزيارة؛ فنحن ندعوا لهم و يومًا ما سنلحق بهم.

كانت ليان تكرر تلك الكلمات على مسامع أمها، و هي تتصنع قوة مزيفة...

تزامنت ذكرى رحيل أبيها الأولى مع بدء مواجهات جديدة حامية الوطيس بين الجانبين لذا فقد وضعت ليان نفسها على أهبة الاستعداد لفقدٍ آخر.

جلست أمها في ذلك اليوم مع أخيها الأصغر كانت تصر إن أصابهما مكروه أن يصيبهما سويًا لأنها لن تقدر على تحمل آلام الفقد لمرة أخرى، بينما أصرت ليان على الجلوس في غرفتها.

كان صراع شديد يعتمل في عقلها فلم يتبقى لها من أسرتها سوى أمها و أخيها الصغير، فبيت العم مكلوم، و بيت الخال مهدوم.

و لم يكن من السهل عليها أن تبث أحدهم شكواها؛ فهناك في تلك الزاوية المغتصبة من العالم الجميع مكلومون، وكانت تدرك ذلك جيدًا فتتوارى عن أعين أمها و أصدقائها، وعن أعين الجميع.

في فراشها تدثرت ليان بغطاء خفيف فلم يكن الصيف بحاجة لغطاء؛ و لكنها كانت تتدثر بالغطاء صيفًا و شتاءًا بعد رحيل أخيها و أبيها، كان لديها شعورًا خفيًا بأن الغطاء قد يقيها شرًا ما.

وضعت سماعة البلوتوث في أذنيها، و كان صوت انفجار البارود محتدمًا في سماء غزة.

ضغط بشدة على أحد ملفات الموسيقى بهاتفها فآتاها صوت فرقة العاشقين( 1)..

هبت النار و البارود غني

و اطلب يا وطن شباب و أتمني

وهبت النار من عكا للطيرة

كمشة صغار ربيو الحصيرة

راحت ليان تذرف الدموع، و هي تتذكر زياد حين كان يحملها فوق كتفيه صغيرة و يمضى بها في الطرقات لم يكن الوطن يوما آمنا، ولكنه كان يسرق لهما من الزمان لحظات أمان كان يكبرها بتسع سنوات وكانت تلك السنوات التسع كافية لأن يقودها، و يعتني بها في أمورٍ عدة..و كما كان زياد يسرق لحظات الأمان كانت هي أيضًا تسترق اللحظات التي تستطيع فيها أن تبكيه هو وأبيها دون أن تشعر بها أمها.

عادها صوت المغني من جديد..

هبت النار كرامه كرامه

و الفلسطينية مع كل النشامى

طلوا فدائية و ويلو اللي يتعامى

فجر الحرية بالدما يتحني.

تمثل حينها أمام عينيها ذاك الفجر، هو يحني كفيه بدماء أخيها، و دماء الكثيرين من الشهداء غيره، استغلت ليان كون أمها مع أخيها الأصغر في غرفته، و ضوضاء صوت البارود بالخارج، و انتحبت كثيرًا بصوتٍ مسموع؛ حتى أعياها التعب فنامت رُغمًا عنها، واستمر نومها طويلًا، ولكنها أفاقت فزعة لتطمئن على أمها و أخيها، وعاد قلبها إلى مكانه حين رأت أنهم مازالوا على قيد الحياة.

(1) فرقة العاشقين فرقة أغاني فلسطينية.

21 -أيار- 2021

كانت شوارع غزة هادئة، و قد بدأ أهلها يتحركون في الطرقات على استحياء، خرجت يومها ليان من المنزل غير عابئة بما يمكن أن يكون في الخارج. فقد أعلنت الهدنة، و لم يعد لديها أي شيء من الممكن أن تفقده أكثر؛ فهي الآن ستعرف تبعات المعركة تباعًا.

كانت الشوارع تكتسى بالحزن، و الجدر المتهدمة تُخفى تحت أنقاضها ما تخفيه.

تطالع ليان عيون المارة من حولها. كانت هي و المارة يراقبون بعضهم البعض، فهم أوائل من خرجوا إلى الشوارع بعد الهدنة.

كانت عباءات جاراتها السوداء، واللاتي ارتدينها وقت الحرب توحي بأمر جلل، ذكرتها النسوة المكلومات بأخيها وأبيها، و لكن وقع خطوات من تبقى من الشباب من جيرانها على الأرض كانت توحي بأن ذلك الشعب إنما وكل بأمر جلل.

ترفع عيناها للسماء وتأخذ شهيقا عميقا ما لبثت أن زفرته.

بعدها استدارت ليان واتخذت طريقها في العودة للمنزل كانت أشجار البوانسيانا بأوراقها العريضة، وأزهارها الحمراء المتوهجة تحتضن الطريق من الجانبين.

اقتربت من منزلها، و الذي كان بابه مفتوحًا، لتبدو أمها واقفة عليه، و كأنها عالقة هناك منذ أن خرجت.

لمحت ليان أمها في وقفتها فخجلت كثيرا من نفسها، و أثقل الخجلان خطواتها فيما هرعت إليها أمها و تعلقت بها.. قائلة:

- لا تفكري أن توجعيني مجددًا يكفيني من الوجع ما مررت به.

احتضنت ليان أمها بشدة، و اعتذرت لها كثيرًا ثم دلفت للداخل.

في غرفتها استلقت ليان على فراشها، و تدثرت بذات الغطاء الشفيف، و احتضنت نفسها بشدة فقد كان السواد الذي اكتست به النسوة في الخارج كاتمًا للأنفاس، فراحت تكز على أسنانها و تكتم دموعها.

بعدها أمسكت بأجندة يومياتها، و فتحت على الصفحة التي تخص تاريخ اليوم ثم التقطت قلم حبر أزرق من درج مكتبها ، و راحت تبث الأوراق شكواها.

لم تكتب ليان يومًا بالقلم الرصاص؛ فهي لم تكن تسمح لأي فكرة خطرت على بالها أن تمحي؛ فعلى الرغم من صغر عمرها لكنها كانت تفلسف الأمر بعمق شديد..

ذات يوم سألتها إحدى صديقاتها عن عدم استخدامها للأقلام الرصاص، فجاوبتها ليان بحزن

- في حياة البعض قد تكون الطلقة الأولى هي الطلقة الأخيرة، وهكذا هي الكلمات، و هكذا كانت تلك الطلقات التي سقط بها أخي الأكبر، و ابن عمي أيضًا.

7 – آب- 2021

كانت ليان قد أعدت حقائب سفرها مسبقًا؛ لتكرس وقتها طوال اليوم للمكوث مع أسرتها الصغيرة؛ فقد كانت تخشى الفقد أكثر مما تخشى أي شيء آخر لم تكن تبوح أبدًا بما تشعر به، و لكنها كانت تشبع عينيها طوال الوقت من ملامح أمها و أخيها الأصغر؛ فقد كانت تتمني لو سافر ثلاثتهم سويًا، و لكن المال الذي استطاعوا جمعه يكفى فقط لإكمال دراستها في الجامعة المسافة بعيدة نعم، و لكنها كانت ترتب لأمور عدة.

فقد كانت تتمني أن تحصل على مؤهلها الجامعي، و تجد عملًا جيدًا تتكسب منه، كي تستطيع أن تأمن بما تبقى من أسرتها خارج حدود غزة، رغم كونها على يقين أن أمها لن تبرح بيتهم أبدا، و هي أيضًا كان يعز عليها الوطن و ترابه، و لكنها كانت تشعر أن عبء أمان أسرتها يقع على كاهلها.

في الليل نصحتها والدتها بأن تدلف للنوم مبكرًا؛ كي تكون في الصباح الباكر على أهبة الاستعداد للسفر، و انسلت أمها لغرفتها الخاصة كي تمنح ابنتها تلك الفرصة للنوم، في الفراش أخذت ليان تتقلب على جنبيها طيلة الليل، ولم تستطع النوم قط و هكذا كانت أمها أيضًا.. كانتا كلتاهما تخافان البعد، ولكن الأمر لم يكن اختياريًا حينها فقد أتما جميع الإجراءات.

8- آب- 2021

في الصباح الباكر جلس ثلاثتهم يتناولون طعام الإفطار ثم ودعتهم. كانت والدتها تصر على الذهاب معها حتي تصل المعبر، و لكنها منعتها معللة بأن الطريق آمنة، و أنها ستوافيها بكل التفاصيل، ثم انتزعت نفسها من حضن أمها على مضض ركبت التاكسي في طريقها لمعبر رفح..

ودعت ليان أمها، و ودعت شوارع غزة، و أشجار البونسيانا على الجانبين من نافذة التاكسي.

9 -آب- 2021

ألقت ليان أخر نظراتها على الجانب الفلسطيني فقد استطاعت عبور الجانب المصري، و استقلت الحافلة في طريقها للقاهرة.

كان عليها أن تصل للقاهرة؛ كي تستقل الطائرة المتوجهة لمطار كييف جولياني بالعاصمة الأوكرانية.. في الحادي عشر من نفس الشهر.

استغرقها الوصول للفندق ما يقارب العشر ساعات، ما إن وصلت حتى هاتفت والدتها لتطمئنها، و استمرت محادثتهما دقائق، و انتهيا؛ فأغلقت ليان الهاتف، و شعرت بعدها بأن حزنها قد تحرر، فهي و حزنها الآن قد اختليا ببعضهما البعض لا يحضرهما ثالث.

التقطت أجندة يومياتها، كانت تخفي بداخلها صورة تجمعها بأبيها، و أخيها الأكبر.. نظرت إليهما مطولًا، و يومها فقط استطاعت أن تنتحب بصوت مسموع.

كانت صديقتها قد أحست بفقدانها، و أن الوقت سيطول حتي تراها مجددا فبعثت إليها برسالة واتساب كانت كافية لتصب ملحًا على جرحها..

فقد بعثت لها بصورة تجمعهما سويًا، و مقطع من أغنية لحمزة نمرة... قائلة:

- ليان أتمني لك رحلة سعيدة، لقد أتيت مبكرًا لأودعك، و لكنك رحلت قبل أن أراك؛ كنت أسمع تلك الأغنية ليلًا، و أنا أقلب في صورنا سويًا؛ لقد أبكتني كثيرًا أستحلفك ألا تطيلي الغياب.

ضغطت ليان أيقونة التشغيل فأتاها صوت المغني، و هو يردد بنبرة سكنها الحزن...

- كل اللي معاك في الصورة غاب.

وطنك و الأهل، الصحاب.

كام واحد ودع و ساب .

من غير أسباب.

شايف في عينيك نظرة حنين.

بتحن لمين و لا مين.

طول عمرها ماشيه السنين.

و الناس ركاب.

أخذت ليان تكرر المقطع مرارًا و تكرارًا، و هي تحملق في كل الصور؛ حتي أعياها التعب، و غطت في نومٍ عميق.

10-آب-2021

في الصباح، و قبل أن تتناول ليان فطورها أمسكت بهاتفها النقال، و أجرت محادثة فيديو مع أمها، كانت تود أن تطمئن عليهم قبل أن تقوم بأية شيء، حدثت أمها مطولًا و طلبت منها أن تسلط الكاميرا على أخيها الصغير لتراه.. بينما كان نائمًا.

انتهت المكالمة، و تناولت ليان طعام فطورها، و خرجت لشرفة الغرفة التي استأجرتها؛ لتلقي نظرات على الشارع.

كان صباح القاهرة مفعما بالتفاصيل؛ فهاهي السيارات تلحق بعضها البعض في غير هوادة، كانت ليان ترقبهم بعينيها، و تخشى أن يتصادما على أحد جانبي الطريق كان عربة الفول يتراص أمامها العديد من العمال، يتناولون فطورهم ؛ قبل أن يذهبوا لأعمالهم،و تتسلل رائحة الكبدة الإسكندراني الحارة من عربة أخرى تقف في مواجهتها.

توقف باص على مدخل الفندق، و لمحت ليان أناسًا تظنهم من أبناء وطنها يترجلون منه، و يدلفون إلى الفندق.

كانت القاهرة هي بوابة الخروج لكل من يريد السفر من غزة؛ فلا أحد من سكانها يستطيع السفر دون أن يمر بالقاهرة أو الأردن.

الطريق طويلة، و شاقة و لكن ليس هناك ما يمكن فعله؛ لتجري الأمور بطريقة مختلفة..

في الثالثة مساء، خرجت ليان من غرفتها و توجهت لقاعة الطعام؛ كي تتناول غذائها، كانت القاعة تضج بالجالسين، و تتناثر الكلمات ما بينهم هنا و هناك، و لكن لم يصل لأذنيها، و لو كلمة واحدة باللهجة المصرية؛ فقد كانت لكنة أهل غزة تسيطر على الفندق.

انتهت ليان من طعام غذائها، و قالت في نفسها..

- لدي سويعات لقضائها هنا في القاهرة لا أريدها أن تمر هكذا.

خرجت ليان خارج الفندق، أوقفت أحد سائقي (التاكسي)، و الذى قد سألها بدوره عن وجهتها؛ فأجابته قائلة:

- لدي ساعتين فقط، و أريد أن أرى شوارع القاهرة.

حينها أومأ لها السائق بالركوب من نافذة التاكسي كانت ليان تراقب الطريق على الجانبين ، و تحاول أن تشبع عينيها من شوارع القاهرة، بالضبط كما كانت تفعل في طريقها من غزة إلى رفح؛ لقد أصابها الفقد، و ترقبه المستمر بولع يجعلها ترغب بتخزين كل ما تحب في ذاكرتها، أدار سائق التاكسي الكاسيت، و إذا بنفس الأغنية التي بعثتها لها صديقتها تصدر منه؛ رمقت ليان سائق التاكسي بنظرات يائسة.. قائلة في نفسها.

- هكذا نحن جميعا نعشق الحزن، و كأن الثقافة العربية يربطها حبل وثيق بالوجع.

كانت كلمات الأغنية موجعه، و كأنها تضغط على جرح مفتوح. حاولت أن تجذب نفسها بعيدا، و لكن كلمات الأغنية استمرت تضغط على وجعها؛ فانسابت الدموع على خديها رغما، لمحها السائق في المرآة فأغلق (الكاسيت)، و استمر يدور بها في الشوارع فإذا اقترب من معلم سياحي أو ما شابه أشار لها.. حتي عاد بها للفندق.

لم تكن ليان قد فضت أمتعتها فهي تعلم أن مكوثها في القاهرة لن يطول؛ فصبيحة اليوم التالي كان عليها أن تحمل أمتعتها في طريقها لمطار القاهرة.

11-آب- 2021

جرت الأمور على خير ما يرام، وأحست ليان في ذلك اليوم أن الحظ قد صار حليفها، فصعدت إلى الطائرة و ألقت نظرة مودعة على سماء القاهرة... هبطت الطائرة في كييف و كان الجو هناك على العكس تمامًا من أجواء القاهرة، فقد كان أغسطس كييف ذو برودة لاسعة، و لكنها كانت على علم مسبق بذلك فشتاء تلك المنطقة من العالم يختلف عن كل شتاءٍ آخر.

بعثت ليان لأمها رسالة ( واتساب ) تطمئنها بها على وصولها كييف، و بعدها أخذت التاكسي و توجهت صوب السكن الذي حجزته مسبقًا على مقربة من الجامعة.

10- أيلول- 2021.

في ذلك الوقت كانت ليان قد ابتدأت دراستها الجامعية ، وبدأ كل شيء بالجامعة يمضى على قدم و ساق، و كانت هي أيضا تأخذ دراستها على محمل الجد و تسعد بها.

أصبحت أيامها أياما مشحونة بالأحداث؛ فقد استطاعت أن تجد عملًا بجانب دراستها كي تستطيع تحمل نفقات العيش و الدراسة.. فهي تصحو من النوم لتحادث أمها و أخيها لدقائق معدودة ثم تتخذ طريقها للجامعة، و بعدها تذهب للعمل ثم تعود لتستذكر دروسها.

لكن على الرغم من صخب يومها كان كل شيء في البلاد حولها هادئًا، و كأنه الهدوء الذي يسبق العاصفة.

راحت محطات الأخبار تتناول أحاديث كثيرة عن نية روسيا شن الحرب على أوكرانيا، راح عددٌ من المحللين يضخمون الأمر، و على النقيض ممن يضخمون الأمر كان هناك من يستبعدون تمامًا وقوع الحرب، و كانت ليان تميل لذلك الجانب؛ فهي ما رأت على مدار حياتها دولة شرعت في حرب و خرجت رابحة، ففي الحرب الجميع خاسرون فلم تشغل بالها بالأمر، و استجابت لحدسها.

24 - شباط- 2022

كانت الحرب قد بدأت بعد بدأ الترم الدراسي الثاني بأيام ليست بالقليلة، و ها هو صوت رحاها يصم أذنيها، فصوت الانفجارات صار قريبًا جدا، و سماء البلدة تعج بالدخان...

جلست ليان محبطة و قد أكلها صقيع أوكرانيا، رغم مرور أغلب فصل الشتاء، و لكنها لم تكن تتحمل الصقيع في ذلك اليوم.

جلست إلى مكتبها و نحت كتبها الدراسية جانبًا ثم سجلت الدخول لحساب الفيس بوك الخاص بها، و ضغطت على أيقونة ( اللايف ).

انفتحت كاميرا هاتفها فأطلت على أصدقائها بعينين أعياهما الإرهاق، غياب النوم الآمن، و الذي لم يعرف يومًا طريقًا لعينيها.

كانت تسلط الكاميرا على عينيها ،و اللاتين كانتا جسورتان رغم إعياءهم الشديد؛ فقد كانت تطل منهما نظرات تحدي واضحة؛ تكفي لتحمل عبء التاريخ و الحاضر.

قطعت صمتها المطول بنحنحة خفيفة .. قائلة:

أتمني أن تكونوا تسمعونني جيدا ؟؟

فأنا اقف هنا من جديد مكتوفة الأيدي طليقة اللسان.. فقط اللسان؛ فأنا محاصرة بالحروب و ويلاتها، أنا لا أبالغ.. لقد فعلت ما بوسعي؛ لكي أستطيع الخروج من غزة، و إكمال دراستي هنا في أوكرانيا. فأتت الحرب على إثري.. هل أصبح انتقالي نفسه نكبة جديدة!!.. و استطردت بإحباط شديد.

بعضكم يعرفني شخصيا و البعض لا يعرفني. لم تعد معرفتكم بي أمرًا هامًا ؛ فبعد دقائق من الآن قد لا أكون ربما أصبح بعيدًا.. بعيدًا جدًا.. حيث لم يعد يجدي أسمًا و لا هوية .

تلعثمت الكلمات على لسانها... قائلة:

لا أطلب ممن يروننني الآن سوي أن أجول العالم على هيئة صوت.

تبادرت إليها أسئلة أصدقائها.

- طمنينا عن أخبارك؟

و آخرون

- ليان أخبرينا ما بك ؟؟

آخرون

- طمنينا عنك.. شو أخبارك؟؟.. إن شاء الله ما في شيء

قرأت أسئلة أصدقائها .. لم ترى من أسألتهم جميعا سوي السؤال الأخير، و الذى بدا لها متناغما مع صوت فيروز حين كانت تشدو بصوتها الرنان في تلك الأغنية الشهيرة.

(( طمنا عن أخبارك شو أخبارك إن شاء الله ما في شيء)).

هزأت ..قائلة:

- ما بالنا –نحن العرب- حتى في أقسي لحظاتنا .. حديثنا منغم، قلقنا منغم، و صخبنا، وغضبنا منغمين!!

إطمئنوا جميعا .. أنا بخير. أتدرون لما ؟!

لأننا جميعا في وطني في تلك البقعة المنسية من العالم قد جبلنا على أن نكون دائما بخير، فقد مات أخي و لذت حينها بالصمت، بدوت أنني بخير، تبعه والدي كمدًا و صمتُ، و أيضًا بدوت أنني بخير.. ثم أردفت متسائلة:

- أتسمعون ذاك الصوت في الخلفية؟!.

ذاك صوت القنابل.. مهلًا.. لا تجزعوا.. لا شيء يرعب.

هنا تهاوت عليها التعليقات مجددًا.

من يعرفونها راحوا يتسألون أين هي ؟؟.. و من لا يعرفونها راحوا ينعتونها بثقل الظل مطالبين إياها بأن تكف عن المزاح.

حينها رفعت- ليان- أنفها بشموخ، و زفرت بحزن زفرة طويلة محاولة أن تستجمع رباطة جأشها..

هنا وقفت أنفاس جميع من نعتوها بثقل الظل ، و من تساءلوا اين هي ؟

بينما استطردت –هي- قائلة:

- لم أعي ما كان يوم ميلادي، و لكنني أعي أن هذا أول صوت أدركته حين وعيت، كان ذلك الصوت بالنسبة إليّ إيذانًا ببدء الحياة، فقد كان يحيطني من كل جانب و يلفني بعباءته أكثر مما لفتني أمي بعباءتها.

تهاوت الأسئلة من جديد.

- أين أنت الآن ؟؟

سأجيبكم لتهدأوا ..

لم أعد بغزة منذ أشهر؛ فقد عقدت النية للدراسة في أوكرانيا و فعلت، و ها أنا ذا الآن كما ترونني.

جميع المغتربين هنا قد لاذوا بقنصلياتهم و سفاراتهم، و أنا لا أجد من ألوذ به لذا لم أحاول

اشتعلت التعليقات أكثر.. مناديه بإنقاذ ليان ، و فعلوا هاشتاج# أنقذوا_ليان.

لكن ليان لم تقل شيئا بعدها سوي كلمتان فقط.

سأخلد للنوم.. بعدها وضعت منشورًا على صفحتها الشخصية تتوسطه صورة محمود درويش، و قد خط عليها شطرًا من أحدي قصائده يقول فيه

" و نحن نحب الحياة إذا ما استطعنا إليها سبيلًا..."

بالفعل خلدت ليان للنوم و تركت ليان (اللايف) مفتوحًا، و بعد سويعات انقطع الاتصال.

يأكلهن سبع

عجاف

* الثامن من ذي الحجه*

كان ذلك الأحد مشمسًا فهو لم يرى أبدًا في حياته السماء بذلك الصفاء الذي رآه حينها، ألقى نظرة مطولة عليها، و شرع في الدعاء بينما يرتدي زي إحرامه، وهو يهرول ساعيًا ما بين الصفا و المروة، ممسكًا بيمينه طفلته الصغيرة لجين. كانت هي الأخرى ترتدي عباءة إحرام بيضاء صنعت خصيصًا للفتيات الصغيرات من مثل عمرها.

كان وجهها الصغير يكاد ينير، و قد حجبتها أمها بذاك الحجاب الأبيض، بينما تمضى في يديه مشدوهة، تكاد تطير من فرحتها و هي تقترب من حشود الحجيج حولها، و ترقب كل شيء و تسأل والدها عن كل شيء.

كان لسعيهما بين الصفا و المروة حلاوة تمس قلبه، و هو الذى لطالما اشتاق لأداء فريضة الحج

ها هي مساعيه – قد كللت أخيرًا- بالنجاح.

الآن فقط يشعر أنه قد ارتاح من عناء الدنيا؛ فقد مكث طويلًا يجمع ما يستطيع من المال كي ينال ذاك الشرف، وها هو قد ناله.

ما بين الهرولة و الأخرى كان يتأنى بعض الشيء لالتقاط أنفاسه. يأخذ شهيقًا عميقًا و كأنما هو يشبع رئتيه بهواء المشاعر المقدسة..

كان الهواء حوله أثيريًا يقلب قلبه ذات اليمين، و ذات اليسار فرحًا، فيشعر بقدميه و كأنما هما تطيران به، و لجين الصغيرة تقفز بجانبه من شدة فرحتها.

عبر ذلك الأثير تهادى إلى أذنه صوت خافت لترانيم قداس تأتي من هاتف نقال يحمله أحدهم.

كانت الترانيم تختلط ببكاء رضيع، و صوت متقطع لأطفال يحاولون إنشادها. تتبع ذاك الصوت باستغراب ولم يصل لمصدره بسهولة؛ فالمكان متسع جدًا.

أفاق ليجد الصوت قادمًا من خيمة إيوان جاره المسيحي.

تمطع محاولًا إراحة ظهره بعض الشيء؛ فنومت الأرض قاسية، و لم يكن قد خبرها أبدًا في حياته سوى في تلك الفترة، والتي يعلم الله وحده متى ستنتهي.

بعدها وضع يده فوق عينه من جديد؛ آملًا العودة لذاك الحلم، و العيش به للحظات أخرى، و لكن الحظ لم يحالفه؛ فكل الأمور الرائعة - بالنسبة إليه- كانت تتوقف بمجرد الصحو.

رمق بعينيه الشرشف الموارب في مدخل الخيمة؛ فلمح زوجته في الخارج كانت زوجته قد أفاقت مبكرًا جدًا من النوم، وتجلس على الأرض مفتوحة الساقين، و قد وضعت فيما بينهما طبق بلاستيكي كبير.

رمقها بعينين خائبتي الرجاء؛ فتلك هي زوجته نفسها التي ما كانت لتبرح صالونات التجميل، و لا تمل شراء الملابس.

زفر بحزن.. قائلًا في نفسه:

- لقد دارت بنا الأيام دورتها؛ حتي أنها صارت لا تغير ملابسها من الجمعة للجمعة، و أنا أيضًا فرائحة العرق صارت أهون ما يفوح من أجسادنا المتعبة.

عاد ليفكر بذاك الحلم الذى راوده، و السعادة اللامتناهية التي شعر بها في تلك الدقائق القليلة، و لكن جذبته من سعادته تلك ذكريات حولت سعادته جحيمًا.

تذكر أخر مبلغ مالي قد سحبه من تلك النقود التي إدخرها على مدار أعوام؛ لأداء فريضة الحج.

كانت تلك الأموال بمثابة أخر الوجبات الكريمة التي ينعم بمذاقها مع أطفاله قبل أن يحاصره ذلك القواد جواد ليجبره على بيع بيته بأبخس الأثمان.

نهض من رقدته، ألقي نظرة متفحصة على أطفاله الثلاث النائمين.. بينما كان أطفال إيوان ما زالوا ينشدون الترانيم بنشوة حسدهم عليها فهكذا هم الأطفال دوما.. يعيشون اللحظة بلحظتها، فلا هم يدركون أو يحملون عبء شيء.

ذرفت عينيه دموع ما لبث أن جففها؛ كان يخشى أن تراه زوجته أو أن يلمحه أحد أطفاله فلم تعد الدموع خيارًا متاحًا بالنسبة إليه؛ فهو بالأمس البعيد كان بمثابة العمود الصلب التي تستند عليه حياتهم الفارهة أما اليوم فصار جذع شجرة عجفاء يسند خيمة نائية، وذاك كان الكابوس الأفظع والذي لم يراوده يومًا.

كز على اسنانه بشدة .. قائلًا في نفسه:

- تبًا لتلك الحياة فالكوابيس تحدث و تستمر بينما الأحلام لا تمكث سوى دقائق ما نلبث بعدها أن نصحوا..

تسلل برفق لخارج خيمته، و التي تقع على أطراف البلاد .

ربت على كتف زوجته، وهي ما تزال منكفئة فوق الطبق البلاستيكي، و جفف عرقها الذى اختلط بماء الغسيل بأكمامه.

كان جاره إيوان يقف هو الآخر خارج خيمته، بدت عيناه منتفختان، و كأنه قد كفكف لتوه دموعًا غزيرة تساقطت منها.

رفع يديه و حياه من بعيد؛ فالرجال لا تحب أن يري أحدًا دموعها.. حالهما كانت واحدة في ذلك الوقت فما لمحه بعيني إيوان لمحه الأخير بعينه؛ فآثر كل منهما البعد.

و ما هي إلا لحظات حتى انسل خارج المخيم بأكمله؛ فالأطفال سيفيقون جوعي، و كيف لا، و هم ينامون جوعي.

حث الخطي في رحلته اليومية للبحث عن لقمة العيش..

بالنسبة إليه .. فقد تغير مفهوم لقمة العيش تماما؛ لم تعد كذي قبل؛ فلم يعد يري أطباق الكبة، و الفتة سوى في أوراق المجلات القديمة الملقاة بالقمامة..

صار للقمة العيش بداخله مفهوم أكثر تجريدًا؛ فهي لا تعدو أن تكون سوى بضع جرامات من الدقيق عبئت بالماء و عوملت حراريًا..

كان يجدها بين الفينة و الأخرى مغمسة بالطين، و حبذا لو كانت مصحوبة ببقايا طعام فاسد أو غيره؛ فلم يعد يبالى بشيء؛ فالمعدة تهضم كل ما يلوكه الفم من طعام.

كان الطريق من خيمته لمكب النفايات في ذاك الصباح طويلًا، وثقيلًا..

راودته الذكريات؛ فعاد للوراء لتلك الأيام، والتي كان فيها يلقى بالكثير من بقايا طعامه بالقمامة، حين كان له بيتًا رائعًا يقيه حر الصيف و برد الشتاء...

تساءل في نفسه.

- هل يحق لي أن أتذكر ذلك الآن؟!

لا أدري.. ربما لو جرت الأمور على عكس ما هي عليه الآن؛ لكنت ندمت، لكنني الآن بعدما جرت علينا الحرب و عهدنا ويلاتها. أتمني أن يفعل أحدهم مثلي قديمًا، و أن يلقي ببقايا كثيرة من طعامه في القمامة.

لكن.. هكذا هي الحرب دومًا لا تبقى و لا تذر.

في مكب النفايات أخذ يقلب في الأكياس القليلة، و المنعقدة على اللاشيء، ثم استند لجدار بجوار المكب، كان يستند إليه أيضًا كلب يائس أتعبه الجوع؛ فنام.

مسح بيديه على ظهر الكلب محدثًا إياه.. بحزن شديد.

- إذا كنت لم تجد ما تأكل، و هذه حالك منذ ولدت، هل سأجد – أنا- ما يشبع أطفالي؟!..

كانت أنفاس الكلب متقطعة، يفصلها وقت ليس بالقليل عن بعضها، بعدها زفر زفرت طويلة، و كانت تلك آخر زفراته في الحياة.

حينها هب واقفا من جلسته، و راح يستجمع كل طاقة بداخله؛ كي يعود لأطفاله بالطعام، راح ينبش كل الأكياس بعنف و سرعة؛ محاولًا كسر يأسه، و مكث هكذا وقتًا ليس بالقليل حتى عاد قبيل الظهيرة.. حاملًا من الفتات ما يسد رمق أطفاله.

كان أطفاله مازالوا نائمين، و قد أعياهم الوهن.

باغتته صورة الكلب الذى خلفه عند المكب، و هو يحتضر من شدة الجوع؛ فهرع لإفاقتهم.

هدأت نفسه بمجرد أن أفاق ثلاثتهم من نومهم، و تجمع الجميع حول الكيس البلاستيكي الذى عاد به، و راحوا يتناولون طعامهم.. كان هو و زوجته يتأنون كثيرا ما بين اللقمة و الأخرى؛ حتي ينتهي الأطفال من طعامهم، و كانت لجين ابنتهم ذات العشر سنوات ترمقهما بنظرات متفحصة.

كانا يلحظان نظراتها تلك، و يفعلون ما بوسعهم للهروب من عينيها؛ متنكرين لكونها من الممكن أن تدرك معني تأنيهم هذا في تناول الطعام، و هي في هذه السن الصغيرة.

فرغوا من الطعام، و ألقت زوجته بالكيس الفارغ بعيدًا، و جلس الاثنان مع أطفالهم.. يسمعون حاكياهم ذات التأتأة، و يتبادلون الضحكات.

كانت ضحكات زوجته ذات الصوت الصاخب تكاد تحدث شقوقًا في وجهها؛ كونها تضحك عنوة، و لكنه ما كان يستطيع أن يفعل شيء من أجلها، فهو أيضا كان يضحك ذات الضحكات؛ فلم تكن ضحكاتهم سوي ضجيجًا بلا طحن.

سمع الأطفال أصوات رفاقهم بالخارج؛ فهرعوا للعب معهم.

بينما مكث هو و زوجته سويًا.

ربتت على فخذيه فابتسم لها ابتسامة باهتة، جذبها إليه، أخذها بين أحضانه، و استلقيا يحملقان في سقف الخيمة ثم ساد صمت طويل.

و ما هي إلا لحظات حتى زفرت زوجته أنفاسا كانت تحبسها.. قائلة:

- لكم أحن إلى بيتنا لم أره منذ زمنٍ بعيد.. ترى هل سنعود إليه مجددًا؟

عبث بيده في خصلات شعرها التي تلبدت.. قائلًا:

- بالتأكيد حبيبتي.

كان يزعجه في تلك اللحظات؛ كونه علي يقين تام أنه يكذب، و أن حالتهم التي هم عليها الآن ربما تكون أفضل من القادمة.

حاول أن يجذبها بعيدا عن الذكريات؛ فحكي لها ذاك الحلم الذي راوده صباحًا، و كيف أنه يستبشر به خيرًا.

حينها عبث بذاكرتها، و أحلامها البعيدة.. حين تذكرت كيف كانت تأمل مستقبلًا مشرقا لابنتهم لجين؛ لقد كانت متفوقة في سنوات دراستها الأولى، و كانت لجين تخبر كل من يسألها أنها تود أن تصبح طبيبة.

لم تنبث حينها زوجته ببنت شفة، و ظلت شاردة البال تفكر في تلك الخيالات حتي داهمها النوم.

نظر إلي جسدها المتعب، و رأسها التي تقبع فوق ذراعه؛ فباغتته ذكرى فراشهم الوثير حين كان يرقدان عليه. بعد أن تفرغ زوجته أعمالها المنزلية، و لكنه استفاق ليجد نفسه من جديد واقفًا أمام ماكينة الصراف الألى، و يسحب آخر ما تبقى من نقود في حوزتهم.

كانت كلمات زوجته قد أشعلت بداخله الحنين لرؤية منزلهما؛ فسحب ذراعه من تحت رقبتها.. ثم طبع على وجنتها قبلة حانية، و انسل خارجًا.

خارج الخيمة كان المساء قد أسدل ستاره بينما أطفاله لا يزالون منشغلين باللعب على ضوء مصابيح الإنارة القليلة، و التي قد وضعتها منظمات الإغاثة.

خرج خفية دون أن يروه، و حث الخطى في طريقه لما كان منزله قديمًا.

كان يمضى بالطريق متوجسًا خيفة أن يلقى ما لا يحمد عقباه؛ فالطريق لم تعد ممهدة كذي قبل، و قد يكون ذئب جائع أهون ما يخبئه الليل تحت ستاره.

لم تكن المرة الأولى التي يمضى بها على ذات الطريق...

مر بها ذات يوم بينما كان يقود بزوجته و أطفاله في طريقهما لقضاء عطلة في دولة مجاورة تذكر ذلك اليوم حين كان يقود وسط المروج الخضراء، و أدارت زوجته كاسيت السيارة، و لعلع منه صوت وديع الصافي، و هو يغني .

- خضرا يا بلادي خضرا رزقك فوار .. محروسة بعين القدرة تبقى هالدار.

كان أطفاله يصفقون على وقع الأغنية، و تشدو زوجته معها.

تطلع بعينيه على جانبي الطريق هي ذات البلاد، و لكنها لم تعد خضراء؛ فقد اختفت المروج الخضراء على الجانبين، و كأنما قد ضربتها السبع العجاف.

استغرقه الأمر أربع ساعات؛ كي يصل إلى منزله.

كان المنزل مضاء بمصابيح كثيرة، و قد تغيرت معالمه تماما، و ينبعث منه صوت صاخب لموسيقى غربية.

و عليه لافتة كتبت بالخط العريض.

(( كازينو الجواد )).

اقترب من إحدى النوافذ، و راح يراقب بعينيه ما يحدث في الداخل، كان جواد يجلس على طاولة بعيدة، و ينفث دخان سيجاره بينما يتطلع على الصالة من حوله، و التي كان زبائنها يترنحون ما بين الثمالة، و الرقص، و لعب القمار.

خلف النافذة جلس حزينًا لما حل بمنزله تمني حينها لو أن لديه سكينًا؛ فيدلف للداخل خلسة، و يشق بها صدر جواد، و لكن غلبه خوفه على أطفاله؛ فصرف الفكرة عن مخيلته.

ظل يراقب ما بالداخل حتي غلبه التعب، فجلس مرتكنا بظهره للجدار، و غلبه النوم.

أفاق قبيل الفجر كان خيط الزبائن يتواتر في الخروج من الملهي، و ما هي إلا نصف ساعة حتي انفتح باب الملهي الخلفي، و خرج منه أحد العمال يحمل أكياس قمامة، و ألقي بها في صناديق قمامة. وضعت على بعد عشرات الأمتار من الملهي كان يعرفها جيدا.. هم أن يهرع إليها فور رحيل العامل.. محدثًا نفسه:

- سيكون بها بقايا لحوم، و دجاج، و أسماك بحرية؛ فهؤلاء بالداخل هم فقط القادرون أن يقتاتوا ببذخ في هذه الأزمنة.

و لكن الوقت لم يمهله؛ فما هي إلا لحظات حتي خرج عاملان أخران يحملان صناديق زجاجات خمر فارغه، و ألقيا بالزجاجات في نفس الصناديق؛ فأحدث صوت ارتطامها ببعضها البعض جلبة شديدة. لم يسمعها غيره؛ فمن تبقى من السكارى بالداخل؛ لا يسمعون سوي ضجيج الملهي، و تحيات جواد لهم بين الحين و الأخر.

عاد العاملان هذه المرة مسرعين للداخل.. بينما هرع هو صوب الصناديق..

نظر بداخلها ؛ فأصابه اليأس؛ فقد كانت شظايا الزجاج الكثيرة المتناثرة بكثافة؛ تحجب الأكياس أسفلها عن الرؤية..

لكن رائحة ذكية كانت قد انبعثت من الأسفل؛ جعلته يتناسى أمر تلك الشظايا، و يمد بذراعيه العاريتين؛ كي يصل للأكياس.

لم يكن هناك ما يحميه من نهش شظايا الزجاج لذراعيه. كما لم يكن هناك ما يحميه و أطفاله من نهش الحياة لقلوبهما.

بالكاد استطاع استخراج كيسين انكفأ عليهما، وأخذ يلتقط ما بهما من بقايا طعام و يضعه بالكيس الذي يحمله معه دوما قبل الخروج من الخيمة..

كان النزف قد أعيا ذراعه؛ فخلع قميصه، و راح يكتم به جروحه ثم عاد يجر قدماه المتعبتان إلي خيمته، كانت الطريق مرهقة بالنسبة إليه أكثر منها مساء الأمس.. فحرارة الشمس كانت تأكله، و تلفح جروحه، و لكنه أصر على المضي قدمًا.

وصل إلى المخيم، وقف أمام الشرشف المهترئ، و الذى تضعه زوجته على باب الخيمة؛ كي تستر عورة الداخل .. ثم ردد في نفسه هازئًا.

– تعتقد أن الشرشف يمنحها مزيدا من الخصوصية، و هكذا هن جميع نسوة المخيم.

بعدها زفر زفرة تائهة ..

– لله درك يا بلادي إلى متي سأظل، و أسرتي افترش العراء.

بعدها دلف للداخل؛ ليوقظ أطفاله الذين أعياهم الجوع و الوهن.. متسائلًا في نفسه:

– ترى هل يفيقون متأهبين في انتظار ما أتيتهم به؛ فأنا بالخارج منذ الليلة السابقة، و كان الأمر تماما كما توقع.

طلب من زوجته أن تجمع ملابسهم تلك التي أوسعتها ( دعكًا ) نهارًا كاملًا؛ كي تبدوا جديدة.

بعدها جلس وسط أطفاله، و فتح الكيس البلاستيكي الأسود أمامهم كانت عيونهم تلتهم الكيس، و ما بداخله؛ فالأطفال لا يدركون معني للحروب.. هي فقط تنهش لحمهم و تقتات على عظامهم..

يندفع ثلاثتهم؛ ليأكلوا مما أحضر أباهم، و كانت رائحته زكية هذه المرة، و ما هي إلا لحظات حتي توقفت لجين؛ بعد أن رمقت ساعده النازف فجأة؛ لتسأله سؤال منكسر:

– ألن تأكل معنا يا أبي؟

كان سؤالها بسيطًا و عفويًا، و لكنه وقع على قلبه الجائع وقع الندي على أشجار عطشى.

– لا حبيبتي .. لقد أكلت في الخارج.

ما إن فرغ الأطفال من طعامهم حتى أصروا على أن يرتدوا ملابس العيد، و التي كانوا يخالونها جديدة قبل النوم؛ كي يكونوا صباحًا على أهبة الاستعداد للاحتفال في الصباح مع مثليهم من أطفال المخيم.

ألبسهم هو وأمهم إياها .. ثم ناموا ، و لم يشعر بعدها بنفسه؛ فقد غط في نوم عميق.

في الصباح ..تعالى صوت سكان المخيم؛ محاولين استجلاب الفرحة.

ها هم يكبرون تكبيرات الإحرام، و يكررونها.

استيقظت زوجته، و استيقظ طفلاه الصغيرين، لكن تلك الحنونة – لجين- لم تصحوا بعد. مد يده ليوقظها؛ فهزها برفق.. قائلًا.

– لجين .. حبيبتي.

لكنها لم تستجب له عاد ليهزها بعنف، و لكنها أيضًا لم تستجب.

كان جسدها هامدًا، و قد فارقت الحياة بينما تقبض على ورقة بيديها. فتح الورقة في غير وعي. كان مخطوطًا بها آخر كلماتها للحياة.

– بابا .. يوميًا أراك أنت و أمي.. لا تأكلان كثيرًا لأجلنا، و أحيانا لا تأكلون إطلاقًا، و أنا أيضًا قررت أن لا أكل لأجل إخوتي. مازالا صغيرين يا أبي، و الجوع يؤلم.

لم يعرف حينها ماذا يفعل فقد وقف مصدومًا و مغيبًا، لم يستطع أدراك ما حدث حاول مرارًا إفاقتها؛ استدعي طبيبًا يعيش في خيمة على مقربة آملًا أن تفيق طفلته، و لكن الأمر لم يجدي نفعًا؛ قد فاضت روحها إلى بارئها.

راح يعصر تلك الورقة – التي كتبتها له- بيديه.. بينما ربت الطبيب على كتفيه.. قائلًا:

-البقاء لله.

في تلك اللحظة سقطت أخر أماله في الحياة، و سقطت زوجته مغشيًا عليها.

فأسرع الطبيب لإفاقتها.

أفاقت زوجته لتحتضن لجين بشدة، و تعالى صوت صراخها حتي كاد يشق عنان السماء..

بعدها تمالك رباطة جأشه المكلوم، و حمل جسد طفلته الوهن.

كانت زوجته تشد جثة طفلتها من يده صارخة، و لكنه قاومها، و حملها في صمت؛ محاولًا التواري عن أعين جيران المخيم؛ فهم لابد مبتهجين، و اليوم عيد.

رمقهم من بعيد بعين يائسة، وهم يهللون و يكبرون غير مدركين لما حدث له. نشد بدموعه المكتومة، و صوته المكسور، من قصيدة نزار قباني أشطرًا.

((يا عيد عذرًا فأهل الحي قد راحوا .

و استوطن الأرض أغراب و أشباح.

يا عيد ماتت أزاهير الربي كمدًا.

و أوصد الباب ما للباب مفتاح)).

بعيد المخيم حفر ما يكفى؛ ليواري جسدها الصغير، و دفنها مكفنة بثياب عيدها المزعومة.

# صوت بذيء
# متحشرج

كان في طريق عودته من العمل يمشى بخطى متثاقلة للأرض فهو يوقن تمام اليقين أنه كما للعمل مشاكله، والتي يمكن حلها ما بين الحين و الأخر فلتلك الغرفة التي يقطنها أيضًا مشاكلها الخاصة، والتي يعجز دومًا عن حلها، مهما حاول في ذلك الأمر جاهدًا.

فهو قد تجاوز الأربعين من عمره، حين يتجاوز الرجل الأربعين يقف على ناصية العمر، و يتطلع للوراء؛ محاولًا أن يعرف جدوى ما مر من عمره، وأن يحصر إنجازاته التي ربما يكون قد حققها.

و كان هو من هؤلاء؛ فدائمًا ما يقف مع نفسه تلك الوقفة، و لكنه ينظر للخلف فلا يجد شيئًا؛ فيصاب بالإحباط مرة تلو الأخرى.على مضض يحاول جذب نفسه بعيدًا عن دائرة البحث تلك؛ كي يستطيع الاستمرار في الحياة.. قائلًا في نفسه:

- يا رجل دع الماضي ورائك وانظر للأمام.

يتحفز بعض الشى، و يتملكه أمل كاذب و لكن ذاك الأمل ما يلبث أن يتلاشى؛ حين ينظر أمامه فلا يجد شيئًا، أن الغد الذى يمني نفسه بالنظر إليه لا يعدوا أن يكون صورة للأمس، و لكنها منسوخة بشكلٍ رديء.

ظل هكذا طوال الطريق يرفعه الأمل، و يحطه اليأس حتى قادته قدماه إلى ذلك الزقاق المزدحم الذي يقطن به.

في الطريق المؤدي لغرفته كان يتخبط بالشباب من جيرانه، و الذين بدا بعضهم و كأنما هو ثمل في وضح النهار؛ فهم يمشون مترنحين، و يتخبطون بالجدران على الجانبين يحييهم بأسمائهم رغمًا عنه؛ مخافة أن يظنه أحد مدسوساً أو غريبًا على المكان؛ فيشهر مطواته في وجهه، و يأتيه رد تحيته تلك بصوت مترنح مخمور.

اقترب من باب الغرفة التي يسكنها كان صوت التلفاز بالداخل واضحًا وضع يديه في جيبه؛ ليلتقط المفتاح، و لكن الباب ما لبث أن أنفتح، و ظهرت من خلفه امرأة جميله في منتصف الثلاثينات، ترتدي بلوزة بيضاء متهدله فوق بنطال من الجينز.

كانت المرأة قد فكت أزرار البلوزة العلوية معتمدة؛ لتبدو فتحة الصدر غائرة بعض الشيء؛ فهي تعلم أن ذلك الأمر يروق الرجال، و كان زوجها بالنسبة إليها كالكتاب المفتوح. كان شعرها الأسود الفحمي المنسدل على كتفيها يتخلله بعض الشعر الأبيض، لكنها لم تكن تكترث له؛ فالحياة أحيانا تقود المرأة إلى اللامبالاة المطلقة، و لكنها حين تكون بتلك الغرفة في الشارع المزدحم. كانت تتناسى كل شيء محاولة أن تصنع صورة مصغرة لحياة رائعة، فتصير

كالسيناريست الذي يعد سيناريو فيلمًا سينمائيًا، يكرس جل تفكيره في تصور مشاهده، و لكن الأمر بالنسبة إليها لم يكن يقف عند مرحلة التصور؛ فقد كانت تقوم بالتنفيذ إثر التصور.

وقفت بـباب الغرفة متمايلة بغنج، و وقف أمامها هو الأخر منبهرًا، و قد اتسعت حدقتاه؛ كانت السيناريوهات تعبث برأسه هو الأخر حين يراها، و كانت هي تدرك ذلك الأمر بمجرد النظر إلى عيناه؛ فازداد غنجها ثم مدت يديها إليه بابتسامة عريضة، و جذبته للداخل.

في كل مرة تأت إلى الغرفة كان قلبه ينتفض من مكانه؛ فهي امرأة جميلة، حالمة تعشق المفاجئات؛ لم تخبره و لو لمرة واحدة بقدومها.

كان حضورها يخلق حالة أثيرية بداخله فهو بمثابة العيد بالنسبة إليه؛ لأنه يدخل على قلبه البهجة، كانت تلك الحالة تستمر قرابة الساعتين ، ربما تمتد لثلاث ساعات، لكنه ما يلبث أن يفيق منها على أزمة حياتهما الكبرى، وعلى لحظات رحيلها..

سبقته المرأة لطاولة صغيرة وضعاها بجوار الفراش، و تبعها شعرها.. كانت كل هزة تهتزها في مشيتها يهتز لها قلبه.

فوق الطاولة كانت قد أعدت طعام الغذاء.

جلسا يتناولانه سويا مازالت تتمايل بغنج بنصفها العلوي، تضع بعض اللقيمات في فمه، و تلمس شفاهه على إثرها كان يستمتع لمذاق الطعام من بين أصابعها العاجية، و لكن شيطان الواقع كان يفسد عليه لحظات المتعة تلك؛ فيجزع حين يفكر في شئونهما الخاصة، و ما قد يؤول إليه أمرهما، و حينها يتصنع اندماجه في مشاهده التلفاز.

فرغا من تناول طعامهما، استمر هو في متابعته للتلفاز بملل شديد فيما أحضرت المرأة كوبين من الشاي، وضعتهم على الطاولة أمامه، جلست تستند بجسدها إليه، و لكنه ظل شاردًا.

فكرت هنيهة فيما يمكن ان تفعل لتجذبه من شروده؛ فأراحت رأسها على فخذه؛ فسرت في جسده تلك القشعريرة، و التي تسرى به دومًا حين تقترب منه، فعلى الرغم من كونها زوجته لثلاث أعوام مضت كان اقترابهما نادرا بعض الشيء.

ظلت على وضعها هذا، التزمت في انتظار أن يبادر هو بالحديث، و لكنه لم يفعل، فراحت تحدثه في تلك الشئون العادية، و التي تشغل بال النساء؛ كي تكسر الصمت. كانت تعلم في قرّارّة نفسها أن تلك الأمور لا يستمع إليها الرجال في أغلب الأحيان إلا مرغمين؛ كونها لا تعنيهم، و لكنه بقي على شروده؛ فقد كان يعلم أن هذا الحديث مقدمة لأمر ما.

استمرت المرأة على تلك الحال ما يقارب ربع الساعة، و لكنه لم يتجاوب معها، و لو بإيماءة بسيطة من رأسه، و ربما لم يكن صوتها - في ذلك الوقت- يصل لأذنيه.

شعرت حينها، و كأنما هي تتحدث للفراغ؛ فآثرت الصمت.

كانت معتادة على شروده هذا بين الحين و الأخر؛ فالمرأة مع مرور الوقت تخبر طباع زوجها، و تدرك ما تفعل حيالها.

حتي و لو كان زواجهما هذا عرفيًا، و لا يرون بعضهم البعض إلا بضع سويعات كلما سنح الوقت.

مرت عشر دقائق من الصمت، و بعدها راحت ترمقه بعينين متفحصتين، و أصابها شعور بالإحباط؛ فهي لم تكن تود الصمت هذه المرة على العكس كانت تريد أن يستمر حديثهما طويلًا.

كانت تترقب أن يتحدثا بشأن إعلان زواجهما، و هذا ما كانت تترقبه دومًا في كل حديثٍ لهما.

فإعلان زواجهما كان، و ما زال في صدارة قائمة الغيبيات، و لم تكن تستطيع أن تلومه على ذلك؛ فالأمور خارجة عن إرادة كلاهما.

كانت عيناه الشاردتين تخبرها أن وراء الأكمة ما ورائها..

تملكها اليأس، انطفأت بسمتها ثم جذبت رأسها ببطء بعيدا عن فخذيه، اعتدلت في جلستها، و طبعت على شفتيه قبلة باهته بينما تحبس دموعها.

بعدها حملت حقيبتها، وانسلت عائدة لمنزل والديها.

ما زال هو متسمرًا أمام التلفاز، ربما لم يلحظ رحيلها كان صوت الموسيقى يعلو و ينخفض، و على الشاشة ظهرت صورة للكرة الأرضية، و هي تعلوا وتدور حول نفسها دورات كثيرة متتابعة. كان ذلك تتر نشرة الثامنة.

انتهي التتر، و شرع المذيع في فض ما بجعبته، و هو جالس يتابعه في ملل.

لم يتذكر أبدًا ذلك اليوم الذي أخبره فيه طبيبه النفسي أن أول خطواته للتخلص من الاكتئاب هي أن يتوقف عن متابعة الأخبار، وكان اكتئاب لحظي قد تملكه في ذلك الوقت بينما فم المذيع ينفتح و ينغلق بدون توقف؛ فضغط بعدها الزر الأحمر في ريموت التلفاز بعنف، و كأنما يضع يديه على فم المذيع؛ ليكف عن الحديث ..

بالفعل صمت المذيع، لكنه ما لبث أن شعر بدوار شديد في رأسه، و تداخلت الصور أمام عينيه.

أغمض عينيه لدقائق، و ضغط على جبينه بكلتا راحتيه؛ محاولًا جهده في الاسترخاء، و لكن جسده لم يستجب، و ظل هكذا حتي غلبه النوم ..

حينها تجسد أمام عينيه الصراع الدائر في رأسه، فراح يتابعه بشغف، و كأن الصحو كان يفقده الشغف.

سمع صوت أناس بداخله يتكلمون، و لكنه لم يدرك مصدر الصوت، و لا حتي من هؤلاء الذين يتحدثون؛ فظل يتابع كي يتبين الأمر.

كانت أفكاره المزدحمة، و المتشابكة تتصارع فيما بينها، و يتخبطون به في صراعهم. ثم سادت دقائق من الصمت. أحس حينها باليـأس فهو لم يعرف فيما صراعهم بعد إلى أن أشاحت الفكرة ( أ ) بيديها. قاطعة الصمت الطويل قائلة بصوت غالبه اليأس:

– لقد أصبحت الحياة قاتمه حد السواد.

أحس أن هناك بداخله من يتحدث بلسانه؛ فتعلقت عينيه بها فيما تطلعت إليها جموع الأفكار من حولها بنظرات مريبة متسائلين في أنفسهم.

- ما بالها تجاهر بامتعاضها من الحياة، و لا تخشى شيئًا؟!

ربما أنها قد زهدت الحياة؛ فلم تعد تخشى شيئًا، و ربما تكون مدسوسة علينا!!.. تحاول أن تكتشف ما بداخلنا، و لكن إحداهن ما لبثت أن نطقت بصوت مسموع

صوب عينيه تجاه مصدر الصوت.

كانت الفكرة (ب) تجلس على كرسي خشبي، و تتكفأ برأسها ، و كأنما هي تود أن تطال الأرض.. متسائلة:

– و ما الجديد في الأمر؟!.. الحياة هكذا منذ وقت طويل، و لكننا معشر الحمقى نظل نعاندها، و نظن لبعض الوقت أننا قد فزنا بها، و لكن الحقيقة أنها تقضى علينا متلذذة بدمائنا كمصاص دماء يروقه مذاق دم فريسته.

ترد عليها الفكرة ( أ) من جديد.

- لم يكن الأمر مسبقًا قد وصل لهذا الحد، فحتى الأمس القريب كان الغد يحمل إليَّ أمل ما، و أظنك مثلي، و أظنكم جميعا كذلك و لكن هذه الأيام لم أعد حتى أملك ذلك الأمل بالبقاء على قيد الحياة حتي يحين صباح الغد.

كانت الفكرة ( ج ) تجلس في الزاوية واضعة رأسها ما بين كفيها، و لكن حديث الفكرتين ( أ ) و ( ب ) قد أثار بداخلها حزنًا ما فانخرطت به.. قائلة:

- لم يعد في هذه الحياة شيئًا أهون منا نحن؛ فقد أصبحت الواحدة منا تساوي أقل من ثمن رغيفِ خبزٍ، و صرنا أهون ما نكون على بعضنا الآخر؛ حتى هان كل شيء.

لامست كلمات الفكرة ( ج ) الأخيرة قلبه، و راح يكررها بداخله.

- صرنا أهون ما نكون على بعضنا الآخر؛ حتى هان كل شيء.

فجأة ظهرت حبيبته تمشي مترنحة ما بين الأفكار؛ فأخذوا يتخبطون بها هي الأخرى لمحها من على البعد، و لمحته بينما لا يستطيع الحراك لفعل شيء من أجلها راحت تحاول جاهدة أن تصلب عودها، و لكن الأمر بدا خارجًا عن سيطرتها؛ فالروح الكسيرة لا تقدر على فعل شيء، و لكنها تحينت الفرصة، تشبث بحقيبة يدها الفارغة، و راحت تجري غاضبة، و كأنما هي تطوي الأرض أسفل قدميها طيًا.

جرى خلفها محاولًا اللحاق بها، و لكنه لم يدركها شعرت به خلفها فاستدارت؛ لترمقه بعينين مليئتين بالدموع حينها تثاقلت قدماه، و كأنما قد التصقتا بالأرض، و استمرت هي تركض في محاولتها للهرب؛ حتى اختفت عن عينيه.

ما زال متسمرًا في مكانه لا يستطيع الحراك، و عيناه متعلقتان بأخر طيف لحبيبته فجأة أحس بلكزه أصابته إثر مرور إحداهن بجانبه؛ فاستدار، و كان يود أن يصب جام غضبه على من لكزه، و لكنه أدرك أن الأمر كان خارجًا عن سيطرتها؛ فقد كانت فكرة أخرى ممتلئة بعض الشيء، و تحمل فوق ذراعيها رضيعتها.

كانت الرضيعة تصرخ من الجوع بينما تتخبط بهما الأفكار المزدحمة يمينًا و يسارًا، و تعلوا الجلبة.

حينها لملم شظايا غضبه؛ فقد كانت تلك الفكرة تشبهه كثيرًا؛ هو أيضًا يحمل عبء حبيبته، و هي تحمل عبء رضيعتها.

جلست الفكرة الممتلئة في منتصف الطريق، و كأنما هي تعترض الطريق تعجب من أمرها كثيرا؛ فقد لكزته، و اقتحمت حشود الأفكار على الجانبين، و ها هي تجلس في منتصف الطريق..

اقترب منها؛ ليمعن النظر فيها. كانت عباءتها السوداء قد لطخت بالتراب، وكأن العباءة قد خبرت الجلوس إلى الأرض مسبقًا مرات عديدة.

بدا جلوسها هادئًا في البداية بالنسبة إليه، و لجميع الأفكار المارة من حولها؛ رغم اقتحامها للحشد، و لكنها ما لبثت أن شقت جيبيها، صرخت صرخات مدوية، و راحت تلطم خديها كان صوت صراخها يختلط بصوت بكاء طفلتها، و هي تقول:

لم أعد قادرة على التحمل أكثر من ذلك، الكثير منكم متشائمون، وهم لا يحملون من الغد عبئًا – قط سوي عبئهم الشخصي، ولكنني أحمل الكثير؛ أحمل أكثر ما يفوق طاقتي

تابعها بعنين متفحصتين قائلًا في نفسه:

- كم أنا بحاجة لأن أفجر ما بداخلي بتلك الصورة هل أستطيع أن أفعلها، و هل سيرخي ذلك شيئًا من الأثقال التي أحملها على كاهلي؟!

لكن الفكرة الممتلئة عادت لتجذبه من شروده صارخة بصوتٍ متهدج، و هي تصوب عينيها تجاه طفلتها.

- بالله أخبروني ما ذنب هؤلاء في ذاك المستقبل الأسود؟!

بعدما سمع كلماتها راح يبحث عن بعض الأوراق النقدية في جيبه؛ فاقتربت منه فكرة عابرة، و ربتت على كتفيه..قائلة:

- هكذا هم الفقراء يشعرون بـبعضهم الآخر.

هزت كلماتها شيئًا ما بداخله؛ فتحمس أكثر، و اقترب من الفكرة الممتلئة؛ ليمنحها إياهم، و لكنها صدت يديه.. قائلة بعينين مكسورتين:

- ما لهذا خلقت.

صدمته كلماتها؛ فابتعد عنها بضعة أمتار، و راح يتابع الأفكار من حولهم.

لم تحاول أية فكرة منهن أن تواسيها، و كأن كل واحدة منهن كانت تحمل على أكتافها عبئها، و أعباء أخرى كثيرة، و لم تكن ردة فعلهن تثير استغرابه؛ فهو يدرك جيدًا أنه في الوقت الذي تتكاثر فيه الهموم فإن الصمت و الحياد يصيران ملاذين آمنين.

لذن جميعا بالصمت، و لكن صراخ الفكرة الممتلئة ما زال مستمرًا في أذانهن حملته كل واحدة منهن في قلبها، وابتعدت.

على حين غرة..

اخترقت المشهد مركبة ( توكتوك ) هوجاء، تقودها فكرة لم تبلغ بعد سن الرشد، كانت المركبة تعلوا و تهبط مسرعة مع إنبعاجات الطريق، و يصدح صوت الكاسيت الخاص بها بأغانٍ بذيئة.

اصطدمت المركبة بالفكرة الممتلئة، و أردتها قتيلة؛ ليختلط صراخها بالدماء؛ فيصنع ذلك الخليط المثالي من المعاناة، والذي أصبح الجميع يحفظونه عن ظهر قلب، تطير الرضيعة من بين يديها؛ لتسقط هي الأخرى على الأرض، وتنزف رأسها الكثير من الدماء.. ثم يتوقف خيط الدماء؛ لتلحق بأمها.

انشغل الجميع بسقوط الفكرة الممتلئة و رضيعتها للحظات؛ كانت كافية لتتخذ مركبة (التوكتوك) طريقها للهرب.

أخذ الجميع ينظرون إليها مشدوهين، وهم لا يستوعبون كيف همد جسدها الممتلئ، و صمت لسانها الصارخ في دقائق.. ثم راحوا يذمون شفاهم ويحوقلون.

كان ذلك المشهد قد تكرر كثيرًا أمام عينيه.

تسلل ليتوسط المشهد؛ كي يطالع الوجوه من حولها لم تكن هي ذات الوجوه التي رآها مسبقًا، و لكنها كانت وجوه أخرى تشبهها تمامًا..

تصرخ إحدى الأفكار فجأة؛ فيفزع من صراخها الذي اخترق الهمهمات.

- هكذا نحن دومًا .. لا نقدم الدعم في الوقت المناسب.

تطلع لها، وهكذا فعل الجميع كان شعرها المجعد مناسبًا على كتفيها في غير اكتراث نظرت مطولًا لعينيه، وعيون الجميع من حولها.. ثم توجهت للأفكار الأخرى متسائلة.. غير مكترثة بوقفته بينهن.

- هل ربتت إحداكن على كتفيها قبل أن تموت؟!.. هل حاولت إحداكن تجفيف دموعها؟!.. هذا عهدكن دائمًا؛ فلا تقسوا الواحدة منكن إلا على من تشبهها، و لكنكم لا تجرؤون أبدًا على مجابهة ذلك العقل، و الذي جعلكم تدورون حول أنفسكم كثورٍ في ساقيه..

حينها أخرجت إحدى الأفكار صوتًا بذيئًا متحشرجًا من أنفها، وراحت تعنفها.

- أنت أيضًا كنت واقفة بيننا، ومثلنا لم تفعلي شيئا.

حينها أسقط ما بين يدي الفكرة ذات الشعر الأجعد، و صمتت ...

كانت كلمات الفكرة ذات الصوت البذيء كافيه لأن تجعل بعض الأفكار الأخرى؛ ترمق الفكرة ذات الشعر المجعد شذرًا، بعدها عدن لمفاوضة الباعة في أسعار الخضر، والتي هي رخيصة بالفعل.

تدخلت فكرة أخرى من الأفكار، و اللاتي لم ينفضوا بعد من حول القتيلة.

– لا حول و لا قوة إلا بالله. هكذا نحن تظل الواحدة منا طوال الوقت قلقة من المستقبل، والذي لا يعدوا في بعض الأحيان أن يكون دقائق ما تلبث أن تنقضي.

حينها نطقت الفكرة ( أ ) بعد صمت طويل:

– كلنا لها لم يعد شيء مضمونًا هذه الأيام.

بعدها يسمع الجميع صوت عكاز ينقر الأرض؛ فيلتفتون صوب الصوت فإذا هي فكرة عجوز تقترب، وتهش الجمع بعكازها؛ كي ينفضوا ..

استطاعت الفكرة العجوز أن تقترب من الجثتين أكثر..ثم انكفأت عليهن.

عاودته ذكرى زوجته، راح يفكر هل يستطيع إعلان زواجهما يومًا ما، و هل عسى ذلك اليوم أن يكون قريبًا !!

تذكر حين علا صوت صراخها، وهما يتشاجران مهددة إياه بالانتحار. فالدماء التي سالت من الفكرة القتيلة على الارض؛ قد أثارت حفيظته..

تساءل في نفسه..

- ترى هل من الممكن أن تقدم يومًا على الانتحار كما توعدت؟!..

تمنى في نفسه ألا يأتِ ذلك اليوم أبدًا، في تلك الأثناء كانت الفكرة العجوز صامتة، وهي ما زالت تتحسس الدماء بأصابعها.. ثم نطقت قائلة:

- ما زال دافئًا.

بعدها اتكأت على عكازها، وعادت لتنهض.. ثم رمقت الأفكار من حولها بنظرة متحجرة.

– ما لكم هل ستتركونها هكذا ؟!

حينها انهالت عليها الأفكار.. متسائلة:

– ماذا نفعل ؟! أنواريها التراب ؟؟

- تواروها التراب !!.. لا بأس فأنتم سفهاء كما عهدتكم.

– زمانكم هذا ليس زمان مواراة التراب هيا ضعوها في القدر لا بد أن أغلبكم جائعون.

# أحمر قانـي

* 16 من كانون الأول.

كانت المدينة تعج بالحياة؛ ففي الصباح الباكر تنفتح أبواب المنازل، وينسل الموظفون إلى أعمالهم بينما يهرع الصغار للمخابز؛ كي يبتاعوا لأسرهم من الخبز ما يكفيهم، و في الطرقات تستطيع أن تميز سكان المدينة أحدهم من الآخر؛ فسكان الحي الغربي كان يمشى الواحد منهم، وهو بالكاد يرفع عيناه من الأرض، وكأنهم قد آمنوا عاقبة نظرية ( المشي جنب الحيط)، و على العكس تمامًا كان سكان الحي الشرقي؛ فهم يمشون في أنفة، و تأخذهم بأنفسهم أبهة فارغة، لا يتحرك الواحد منهم دون أن يجحد بعينيه من يقابله من سكان الحي الغربي، و أحيانًا يتطور الأمر للتحرش اللفظي و الجسدي؛ فقد كانوا جميعًا بلا استثناء ينظرون لسكان الحي الغربي على أنهم ليسوا سوى كلابًا ضالة لا يستحقون حتى تلك الأرض التي تقام فوقها منازلهم.

كانت المدينة بأسرها في السابق لأجداد قاطني الحي الغربي إلى أن اغتصبها سكان الحي الشرقي عنوة قبل خمسين عام، وكانوا الرعيل الأول لعبادة الأتن.

فالأجداد الغربيين الضعفاء؛ خلفوا لأحفادهم إرثًا من الإجحاف في حين منح الشرقيون لأحفادهم إرثًا ليس من حقهم، وصارت المدينة مشطورة لقسمين قلبًا و قالبًا.

* 17 من كانون الأول *

أفاقت المدينة بأسرها على حادث جللٍ، فقد قطع ابن أحد المنتمين إلى جماعة طليعة أتانيا.. رأس مراهق من الحي الغربي على مرأى و مسمع من جميع من كانوا بالطريق.

التقطته الكاميرات، وهو يلوح بسكينه في أعين المارة ثم جلس للصلاة؛ معلنًا أنه قدم قربان العيد كان لكل معتنق لتلك الديانة الحق في أن يستن إحدى السنن الدموية، و كان القائمون عليها يوجهون لهذا الأمر خفية، ودون تفاصيل معلنة

سرعان ما القت الشرطة على ذاك القاتل، و أودعته بالسجن، ولكن المحققون المشرفون على الأمر من أتباع الديانة ذاتها رتبوا له الأمر؛كي يأخذ حكمًا مخففًا.

* 18من كانون الأول*

صدرت صحف الصباح في المدينة تستهجن الجريمة الشنعاء، والتي قام بها ذلك الشاب؛ معللة الأمر بكونه مختل عقليًا، وقد انفلتت منه الأمور؛ فلم يكن يدرك ما يفعل؛ فعقوبة القتل بالمدينة لا تقل عن الخمسة عشر عاما، و لكنها تخفف لثلاث فقط؛ إذا كان الجاني مختل عقليًا و يقضيها بمصحة نفسية.

كان المحققون يدركون ذاك القانون جيدًا، ولذا افتعلوا كذبة كونه مريضًا نفسيًا؛ كي يخرجوه من ورطته بناءً على طلب من قائد طليعة آتانيا.

في صبيحة اليوم أيضًا اختفت مظاهر الحياة اليومية في الحي الغربي، ولم يكن اختفائها لكون الجريمة قد حدثت؛ فقد اعتاد سكان الحي الغربي على الانزواء في بيوتهم تلك الفترة من العام؛ كي يتجنبوا الشغب و العنف، والذي يفتعله سكان الحي الشرقي معهم كل عام في ذات التوقيت.

كانوا في الأيام السابقة قد ابتاعوا ما يكفيهم من المؤن الغذائية لأسبوع؛ كي لا يضطروا للخروج ؛ لأنه إن جرؤا أحدهم على الخروج من بيته؛ للبحث عن الغذاء، فإن عاد لبيته مجددًا سيكون خالي الوفاض؛ فجميع المحال التجارية كانت تغلق أبوابها طوال أسبوع العيد كتدبير احترازي.

و على العكس تمامًا كان الحي الشرقي؛ فقد كانت الشوارع مفعمة بالحياة، تعج بالمراهقين، و الذين راحوا يعلقون الزينات استعدادًا للعيد، والنسوة العائدات من طوابير مراكز التجميل.

* ليلة 21 من كانون الأول *

كانت ليلة صاخبة.. المدينة بأسرها على أهبة الاستعداد للصباح. فالكبار كانوا يمسكون بيمينهم هواتفهم النقالة يتبادلون التهاني و التبريكات بالعيد مع الأقارب والأصدقاء، و تمسك يسراهم بالكعك الذي أعدته نسوتهم، ويتناولون منه الواحدة تلو الأخرى.

بينما الاطفال في أسِرَتِهِم لا يستطيعون النوم.. يتقلبون على جنبيهم، و كأنما هم يرقدون على جمر، و ينتظرون الصباح بفارغ صبرهم؛ كي يطالعوا من النوافذ قوافل المحتفلين، وهم يهرولون مغنين أغانِ العيد محاطين بأعضاء جماعة طليعة آتانيا من الجانبين، وهم ينفخون (الكلارينت)*1* في طريقهم للمعبد الكبير.

كانت المدينة تعج بالمعابد، ومن الممكن لمن يريد الاحتفال أن يذهب لأي منهما، لكن الأعم الأغلب من المعيدين كانوا يقصدون المعبد الكبير؛ فساحته فسيحة، و البحيرة المقدسة به أكبر من مثيلاتها في بقية المعابد، هناك – في المعبد الكبير- يخطب فيهم خطبة العيد كبير الكهنة، و الذى كان بمثابة الأب الروحي لهم؛ فهم يتبركون بمجرد رؤيته، ولم يكن العامة يرونه إلا فيما ندر، وكان في كل مرةٍ يرونه فيها يترك بداخلهم أثرًا مختلفًا عن ذي قبل؛ في العيد الأخير تكشف عليهم وسط هالة من الضوء صنعتها أجهزة إضاءة سينمائية متطورة؛ فجعلتهم جميعًا يتساءلون في أنفسهم.. منبهرين.

- كم هو مقدس كإله!!

في الصباح هب كل أطفال البلدة من نومتهم فزعين؛ مخافة أن يفوتهم شيء من الاحتفال.

ارتدوا ثيابهم الجديدة مسرعين، وكانت دومًا زهيدة؛ لكن كونها ما زالت جديدة يسعدهم قبض كل منهم على كعكة بكفه الصغير، وراحوا يقفون خلف النوافذ مسحورين.

تعالى صياح سرب المعيدين؛ فعلا نبض قلوبهم ..

تعلقت أعين الأطفال بهم، وهم يهرولون نحو المعبد الكبير، و ينشدون أناشيد العيد، ظلت تلحقهم متعلقة بسياج النوافذ حتى غابوا عن البصر، و راحت تلاحقهم أبصار صغيرة أخرى. في أنحاءٍ مختلفة من البلدة.

يهرع الآباء لترتيب ما تبقى من هندام أطفالهم. نافضين ما تناثر عليها من بقايا الكعك حين كانوا يتعلقون بأسيجة النوافذ..

يرتدي الجميع الأحذية مسرعين؛ كي لا يفوتهم شيء من الاحتفال.

كان بهو المعبد الفسيح يعج بالمريدين، الذين تسمروا ممسكين بأطفالهم، صامتين تمامًا، و كأن على رؤوسهم الطير؛ احترامًا لهيبة المعبد الكبير.

*1* ألة موسيقية نفخيه.. بها ثقوب عدة و تصدر النغمات المختلفة من خلال تغطية العازف لعدد من الثقوب بأصابعه.

.

من الباب الرئيسي للمعبد يخرج مجموعة من عازفي طليعة آتانيا، يتحلقون حول دمية بالحجم الحقيقي لآتان مزينة بزي العروس، ترتدي الكثير من العقود الملونة، و محمولة على محمل عاجي.

كان أربعة من رجال الطليعة شداد البنية يحملونها على أكتافهم، بينما شرع العازفون حولهم في عزف أناشيد العيد.

أخذت تلك المجموعة تدور بالمحمل العاجي دورةً كاملة في بهو المعبد، وأعينهم بالإضافة لأعين المريدين متعلقة بها. تمامًا كما كان يفعل الأطفال في الصباح الباكر خلف أسيجة النوافذ.

ثم عادوا من جديد يقفون أمام باب المعبد الرئيس؛ في انتظار الإذن ببدء الاحتفال.

في قاعة الصلاة، و على كرسيه المرصع بالذهب كان يجلس كبير كهنة معبد آتان منتشٍ في ردائه المزركش، المرصع بفصوص من الألماس، و على جانبي الكرسي الذي يعتليه تنتصب تماثيل لأتن عدة في وضعيات مختلفة.

تقف إحداهن على قدميها الخلفيتين كما لو كانت فرسًا، وأخرى تميل بحنو على رضيعها لاعقه إياه، وأخري يعلوا رأسها قمة كرسي الكاهن، وهي فاتحه ما بين شدقيها، ويعلو رأسها تاجًا ذهبيًا مرصعًا بالألماس.

كان الصمت يلف القاعة؛ فالكهنة الصغار لا يجرؤون في حضرته على التفوه ببنت شفه..

من فوق كرسيه الفخم أخذ يتفحص عيون الجميع من حوله، وكأنه يسبر أغوار نفوسهم؛ فيرى رأى العين ما يدور بعقل كل واحد منهم ..

مرت دقائق على هذا الحال، بعدها دق بعصاه على الأرض دقات شديدة متواترة، و توجه بحديثه إليهم..

كانت كلماته محددة وجافة؛ فقد لمح في أعين بعضهم شراهة لاقتناء تلك الفصوص الألماسية التي تزين ثوبه، وتلك الحلي التي تملأ كفيه و ذراعيه..

كانت نظرات عيونهم في تلك الدقائق القليلة؛ كافية لأن تنتفخ ذاته، و سلطته عليهم جعلته يضع كلًا منهم في مكانه الصحيح؛ بسهولة.. قائلًا:

– لا تخالوا أن أحدًا يصل إلى هنا بسهولة.

بعدها مسح مسحة بيمينه على أحد جوانب الكرسي بشغف، وأردف:

- لقد اعتزلت سنوات طوال من عمري في تلك الهضبة القاحلة، وجميعكم يعرفها أنتم تعرفون جيدًا أن الحياة هناك صعبة و مؤلمة جدًا.

على تلك الهضبة ليس عليك إلا أن تصبر، ليس فقط على الجوع والعطش، ولكن على ترويض الذئاب أيضًا؛ كي تنجوا بحياتك.

أتعلمون كم من مرة كانت حياتي على شفا نهايتها!!..لكنني رجوت أن أنال رضا آلهتنا؛ فتشبثت بها أكثر ..

من منكم يستطيع أن يروض الذئاب، و من يضحي تضحية كتلك ؟!..

ثم عاد ليتفحص أعينهم من جديد؛ فوجد أغلبهم يأكلهم الخذلان، وحينها استطرد.

- لا تتعجلوا شيئًا.. يومًا ما – قد يكون قريبًا - ستعلو مكانتكم. أتمنى لكم رأس سنة آتانية سعيدة، أوصيكم بإفشاء المحبة والسلام، والحنو فيما بينكم؛ كي ترضى عنكم الآتان العظيمة.

انعموا مع رعايا الآتن الرحيمة بالعيد، واستمتعوا مع أطفالكم بمياه البحيرة المقدسة.. انثروا رجالكم، ورجال الطليعة حول البحيرة؛ كي لا تعم الفوضى.

ثم أشار بيده كي يأذن لهم بالانصراف ..

انفض الكهنة من حوله واحدًا تلو الآخر في تؤدة، توجهوا صوب الباب الرئيس، و مع خروج أخر الكهنة لساحة المعبد نفخ العازفون من أعضاء الطليعة في الكلارينت من جديد نفخة مدوية؛ إيذانًا ببدء الاحتفال.

كانت الشرفة العلوية بالمعبد.. تطل على البحيرة المقدسة..

نهض كبير الكهنة من جلسته، تحرك بخيلاء نحو تلك الشرفة، وأخذ يرنوا بعينيه.

كاد يختفى بثيابه المزركشة، وسط النقوش الملونة للأتن عن يمينه و شماله، وعلى الرغم من ذلك لمحه جميع التابعين.

لوح لهم بيده في استعلاء؛ فهتفوا جميعًا بحياته، أخذته العزة بالإثم حين لاحظ كثرة عددهم، وبعدها راحوا يتباركون بمياه البحيرة المقدسة تلك المياه التي بالت فيها الأُتُنُ.

شعر لوهلة أنه قد أتم رسالته على أكمل وجه ..

فها هم المؤمنون يحتفلون، وأعدادهم ليست بالقليلة؛ لم تذهب مجهوداته سدىً. ها هم يفعلون تمامًا كما أمرهم النص المقدس، والذي خطه – خفية - بيديه .

( قفوا منتصبين على أيديكم بينما تلامس رؤوسكم الماء، وأرجلكم للأعلى تأخذ وضعيه حرف()v().. هكذا تتطهرون).*1*

كان وقفوهم البهلواني، وانصياعهم لأوامره التي نثرها في النص المقدس يشبعون غرور ذاته المنتفخ.

**على باب المعبد الجانبي**

كان ذوي الأجسام الممتلئة يتراصون في طابور طويل، وينتظر كل منهم أن يأت دوره؛ كي يدفع كفارة لصندوق المعبد؛ لاستحالة قدرتهم على أداء طقس التطهر؛ فأداؤه يحتاج لتمارين لم تكن باليسيرة.

أخذ يتابع بشغف حرص رعاياه على أداء الطقس والكفارة ثم عاد أدراجه للكرسي، وقبل أن يصعده التفت للأتان التي تنتصب فاتحة شدقيها فوقه، و بعينين زائغتان تمتم بكلمات غير مسموعة، بعدها صعد للكرسي بذات الخيلاء.

بحلول الظهيرة كان جميع المؤمنين قد انتهوا من طقس التطهر.. نفخ أعضاء الطليعة في الكلارينت، و لكن تلك المرة كانت نفخة مميزة يعرفها جميع التابعين؛ كانت إيذانًا ببدء الصلاة.

دلف جميع رعايا الأُتُنٌ لقاعة الصلاة، واحتشدوا حول كاهنهم الأعظم، وعلى رأس المحتشدين. كان المتشددون من أعضاء جماعة طليعة آتانيا.

وقف الجميع يستمعون إلي كلمة كاهنهم، بآذانٍ صاغية..

*1* نص الآتن المقدسة* أيه 172*

فقد استهلها بتهنئتهم بالعام الآتاني الجديد، استطرد بسرد التعاليم السمحة التي علمتهم إياها الآتان الكبرى، وبعد أن فرغ من تلك الديباجة..

تحولت نبرة صوته الهادئة لتصبح جهورية قاسيه، وراح يندد بكل من لا يعبد الأُتُنٌ.

– إنهم فاسدون.. سارقون و قتله.

ثم دار بعينيه دورة خاطفة على الحشود، فقرأ في أعينهم تطلعًا للكلمات التي سينطق بها، و لمح في أعين أعضاء الطليعة شبقًا للدماء؛ فلوح بيديه مهددًا وأردف:

- قسمًا بآلهتنا لم ولن ننس ما فعلوه بنا.

ثم أغمض عينيه، وأطلق لخياله العنان.

- نحن نسامح بإرادتنا - لكننا - نحتفظ بحق الرد في الوقت المناسب..

ففي رأس السنة الآتانية الماضية استغل هؤلاء الملاحدة كوننا مشغولين بالاحتفال، و فعلوا فعلتهم الشنيعة.

لقد اختطفوا إحدى بنات أتان.

ثم سادت لحظة من الصمت. أعاد فيها النظر لأعينهم من جديد، واستطرد.. قائلًا:

- جميعكم تعرفونها..

تملك جميع التابعين شعور بأنهم يعرفون الفتاة. بل و يعرفون القصة، رغم أنهم لم يسمعوا عنها قط قبل أن يشرع كبير كهنتهم في حديثه.

ثم أكمل خطبته قائلًا:

- كم كانت الصغيرة.. طيبة.. مسكينة.. حنونة أعرفها جيدا، ومن منكم لا يعرفها!!.. فقد كانت تأتِ للصلاة باستمرار – هنا في المعبد الكبير- مع والديها.

إنها ابنه آتان التي عُلِّق جسدها بالسنة الماضية على جذع شجرة بعيدة عن بلدتنا.

جميعكم يعلم قصتها.. كبيركم و صغيركم.. رجالكم و نساءكم. تعلمون كيف استدرجوها إليهم، و هي التي تجاوبت معهم؛ لطيب فطرتها و تمسكها بتعاليم الآتن السمحة.

لم يكفهم تناوب ستون من رجالهم على اغتصابها. لقد علقوا جثتها عارية على جذع شجرة لتلتهما الكلاب الجائعة.

ثم تهدجت نبره صوته، و اغرورقت عيناه بالدموع، و هو يتساءل:

- لماذا يفعلون بنا كل هذا؟!.. أبناءهم يركبون الآتن و يلهون على ظهورها، و هناك من عجائزهم من يربطها لتجر عربة، و هناك من يأجرها لأخرين؛ كي يستمتعوا برحلة على ظهورها مقابل أجر زهيد.

إنهم يهينون روثها المبارك، و يدوسونه بالنعال ..

ثم علا صوته صارخًا فيهم:

– تضعونه تمائم في رقابكم و يدوسونه بالنعال.

بعدها استدار تجاه الكرسي، و دعاهم للصلاة. كانت الآتان فوق الكرسي ما تزال فاتحة ما بين شدقيها مشدوهة، و هو يتمتم بصوت متهدج :

–يا إلهتنا .. أنقذينا.. أنقذينا بيد شعبك العظيم و رجاله الشجعان.

علا صوت الجميع من خلفه مرددين ذات الكلمات.

كان صوتهم الحماسي يهز أرجاء المعبد..

انتهت الكلمة و الصلاة ثم توجه لمكتبه، و بعد أن توارى عن أعين تابعيه همَّ الجميع بالانصراف.

تبعه قائد الطليعة لمكتبه، و نقر على الباب نقرًا خفيفًا؛ فأذن له بالدخول.

جلسا سويا لدقائق يتجاذبون أطراف الحديث فباغته قائد الطليعة.. ممازحًا:

- كان أداؤك ممتازًا؛ لقد أوشكت على تصديق قصة الفتاة.

حينها جاوبه.

- أحيانا لابد أن تفتعل القصص؛ إما لتستميل العامة لأمر ما أو لتوجههم صوب آخر، ها قد صار الأمر إليك أنت و رجالك، و أتمني أن تؤتي القصة أُوكُلَها. لابد أن نكون جميعًا على قلب رجل واحد لخدمة عقيدتنا.

بعدها خرج قائد الطليعة، و كأنما قد نال أمرًا جللِ.

أجرى مكالمة هاتفية قصيرة، بعدها استوقف رجال طليعة آتانيا حشود التابعين على أبواب المعبد الخارجية، و دججوهم بالأسلحة البيضاء..

داعين للجميع برضا الآتن الرحيمة، و شددوا عليهم أن الآتن ترى من ليس معها ضدها.

خرجت حشود المؤمنين للمدينة مشحونة بالعنف، و أخذوا وجهتهم صوب الحي الغربي كان قاطنيه مازالوا متوارين في بيوتهم؛ تجنبا للعنف و مثيري الفتن.

وقف رجال الطليعة حينها بأبوابهم، و راحوا يضربونها بقواعد البنادق.. فيم تسلل العامة من رعايا الآتن للداخل، راحوا يعملون أسلحتهم في كل من يرونه أمامهم، و تم إحياء رأس سنة آتانية تكتسي بالأحمر القاني.

# أَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ
# عَلَى الطِّينِ

لم يعد كاليجولا هو ذاك الطفل صاحب الحذاء الصغير؛ فقد شب حتى أصبح الآن واحدًا من الرجال المعدودين على الأصابع في العالم بأسره، و صار لأحذيته العديد من المصممين؛ فهو يرتدي الأحذية الأفخر على الإطلاق، كان العامة من رعيته ينبهرون به، و يعبدون كل شيء فيه؛ من شعر رأسه حتى أخمص قدميه، و كان يدرك ذلك عن العامة بعين الخبير؛ فسيكولوجيا العوام؛ تجعلهم هكذا مع من يستطيع أن يدوس رقابهم بنعله.

كان العامة لسبب ما لا يدركونه. ينجذبون تجاه أحذيته؛ فليس هناك من لقاءٍ يجريه، لا مؤتمر صحفي إلا و تجد الصور الفوتوغرافية تعمل تركيزها على قدميه، و تتناقلها العامة فيما بينهم على صفحات التواصل الاجتماعي إثر كل ظهور إعلامي.

في ذلك اليوم كان كاليجولا يجلس في قصره المنيف، الذى يستقر فوق قمة أعلى الجبال غربًا، و يبدو للعين كما لو كان أسطورة من أساطير ألف ليلة و ليلة.

أشعل غليونه بينما يتابع بعينيه حركة الأوراق المالية صعودًا و هبوطًا، رغم كونه على علم مسبق بحركتها؛ فشركاته المالية تسيطر على سوق التداول في أدنى الأرض و أقصاها، و بإشارة من أصابعه كانت تصعد عملات و تهبط أخرى.

يصل أحد مستشاريه للقصر، و يستأذن في الدخول عليه.

يسمح للرجل بالدخول، و يدخل مؤديًا تحية قد صممت خصيصًا لأجل كاليجولا، فيدخل أيًا كان من يدخل عليه منحنيًا، يرتكز على ركبتيه ناظرًا إليه، و يظل على وضعه هذا؛ حتى يأذن له بالوقوف.

أشار كاليجولا للرجل بالوقوف و الاقتراب؛ فاقترب.. ثم أشار إليه بالجلوس؛ فجلس.

وضع الرجل بين يديه ملفات تحوي عائدات السياحة الرخيصة، مناجم الذهب، و آبار النفط، و التي يحتكرها كاليجولا شرقًا.

ألقى على الملفات نظرة خاطفة، و أعلن أنه ما زال غير راضٍ عن العائدات، و أن تلك الأرقام تحت مستوى توقعاته، و كان الرجل على علم مسبق برأيه؛ فهو لم يره يومًا راضيًا عن أي شيء، و أنهي كاليجولا لقاءه مع مستشاره بكلمة واحدة.

- انصرف.

حينها قام الرجل من جلسته، ساقيه تتخبطان بـبعضهما البعض، و أدى التحية من جديد؛ كي يستطيع الانصراف، كان الجميع ينصرفون من مجلس كاليجولا بخطوات للوراء؛ فلا أحد يجرؤ على أن يدير ظهره إليه.

انصرف الرجل. فأدخل إليه مدير مكتبه فنجانًا من القهوة كان قد أمر به مسبقًا، و انصرف مدير مكتبه بذات الطريقة التي انصرف بها مستشاره.

بعدها ضغط كاليجولا ريموت التلفاز، و على شاشة وكالة أنباءه، و التي تتصدر وكالات الأنباء في العالم، و راح يتابع حلقة من برنامج عباقرة.

كانت صورته تتصدر صور العباقرة في تتر البرنامج، و أولى حلقات هذا البرنامج هي مقابلة معه. فلم يكن فقط على يقين من كونه عبقريًا؛ بل كان يؤمن بأنه إلهًا متجسدًا.

ينتهي تتر البرنامج؛ لتبدأ الحلقة الثلاثون بعد المئة، و كان العاملون على البرنامج يستضيفون.. ذاك الأثري الشرقي الشهير..

يستفيض مقدم البرنامج في وصف ضيفه، لكنه لا يتمادى في مدة الوصف أبدًا، كي لا يقترب من مدة الوصف في الحلقة الأولى من البرنامج؛ فيكون قد جني على نفسه.

بعدها يدشّن مقدمة نارية؛ بما يكفى ليزيد عدد متابعين الحلقة، و راح يعدد إنجازات ضيفه.

انتقلت الكاميرا للكرسي المقابل لمقدم البرنامج. ذلك الذى يجلس عليه الضيف، و قد انتفخت ذاته حتى صار الأستوديو ضيقًا..

و بعدها تحولت الكاميرا لمقدم البرنامج من جديد، و الذى بدوره وجه كلماته للضيف قائلًا:

- أهلًا بكَ عالِمنا الجليل...

- أهلًا بكَ، و بجميع المشاهدين..

- هل لكَ أن تحدثنا قليلًا عن نفسك ؟

- سأختصر لك نفسي بكلمات بسيطة، أنا أثري و علم الآثار هو كل حياتي، و مهما كان حب بعضهم للآثار، و شغفهم بها ؛ فلن يكون أحدهم مثلي؛ فبالنسبة لي الآثار هي ذلك الشغف، و الذى لا أستطيع الفكاك من شراكه كوني عالمًا بها ..يجعل من حياتي متحفًا؛ فأنا أعشق كل ما هو قديم و فني.

توجه إليه مقدم البرنامج متسائلًا:

- هل هناك أحد من أسرتك لديه نفس الشغف؟

حينها زم الضيف شفتيه، و قال بنبرة حزن مصطنعة:

- للأسف ..شغفي لا أحد في أسرتي يكترث له، و لا أخفيك سرًا أن هذا يصنع تباعدًا بشكل أو بأخر بين أبنائي و بيني، لكن حضارة بلادي ضاربه بجذورها في قلبي، و في عمق التاريخ الإنساني، فعشقي لعملي لطالما كان أمرًا خارجًا عن إرادتي، و هذا الأمر يجعلني مشغولًا عن أسرتي لوقتٍ طويل.. لكن هذا قدري، و أنت تعلم جيدًا لا أحد يستطيع الفرار من قدره.

أُصيب بعض المشاهدين خلف شاشات التلفاز بالحزن؛ حين استمعوا لكلمات الضيف في حين صفق كاليجولا بكفيه مرتين ببطءٍ شديد؛ لأن أداء الضيف قد لقي إعجابه.

انتقلت الكاميرا لمقدم البرنامج من جديد.. فتوجه للضيف:

- هذا سؤال من الممكن أن تجيب عنه أو لا تجيب؛ فالأمر متروك لك على أيةِ حال.

حينها تطلع إليه الضيف بنظرات متفحصة و مترقبة.. متسائلًا في نفسه:

- ترى ما قد يكون هذا السؤال، و الذى يحتاج لتلك المقدمة.

لمح الرجل نظرات الترقب في عيني الأثري؛ فمزح قائلًا:

- أري في عينيك الآن تخمينات عدة، و لكنني أود أن أعرف، و أعتقد أن ذلك أيضا سؤالًا يشغل بال المشاهدين.. هل يعود عليك عملك بدخل جيد ؟

صمت الضيف للحظات؛ كي يتفكر في إجابته جيدا ثم أردف:

-اسمع أنا أعشق عملي، أعشقه حتى و إن كان لا يعود علي إلا بدخل زهيد، و أعلنها حصريا في برنامجك أني بصدد اكتشاف سيبهر العالم.

حينها باغته المقدم مسرعًا؛ فقد واتته الفرصة ليحقق سبقًا إعلاميًا .

- هل لك أن تعطينا فكرة عن ذلك الاكتشاف الآن.

كان الضيف قد حضر إجابة هذا السؤال تحديدًا، و حفظها في ذاكرته قبل الظهور على الهواء، حتي دون أن يكون مقدم البرنامج على علم مسبق بأمر الاكتشاف.

- للأسف لا أستطيع؛ فحين أعلن ذلك لا بد أن يكون في مؤتمر إعلامي يحضره أثريون من جميع أنحاء العالم.

أصيب مقدم البرنامج بشيءٍ من الإحباط، و لكنه رد قائلًا:

- حسنًا ..كما تشاء.

ضغط كاليجولا الزر الأحمر في ريموت التلفاز. أنهى مقدم البرنامج اللقاء، و عاد الأثري لبيته.

في غرفة مكتبه ألقي الأثري بالجاكيت الذى كان يرتديه طيلة اللقاء التلفزيوني فوق أحد الكراسي، رفع ساقيه فوق المكتب متأملًا حذائه، بينما يراجع في رأسه كل التفاصيل التي أدلى بها في الحلقة، و يتنفس الصعداء منتشيًا.

يشق السكون الذى يأكل غرفة مكتبه جرس هاتفه النقال.

التقط الهاتف. كان المتصل رجله الأول و ذراعه الأيمن في فريق التنقيب سواء السري أو العلني.

كان الرجل منزعجًا جدًا؛ فبمجرد أن ضغط زر الإجابة؛ صرخ في وجهه:

– لم أخل أنك لمجرد ساعه على الهواء في برنامج كهذا تفضح أمرنا!!

حينها رد الأثري بصلابة، و بكلمات مقتضبة:

– لا تكن أبله هي فقط رسالة أبلغها لمن ينتظرها.

– ما قصة ما سيبهر العالم إذًا.

– كلمات و ستنسى، و أنت سيد من يعرف.. أن العامة كثيرو النسيان.

و ما إن تنتهي مكالمة مساعدة. حتى رن جرس هاتفه من جديد، و لكنه هذه المرة لم يكن يعرف من المتصل.

ضغط زر الإجابة، فأتاه صوتًا عربيًا ذي لكنة أعجمية، و عرفه بنفسه..

كان أحد أساتذة الجامعة الفيكتورية الكبار في الشرق، و طلب الرجل مقابلته.

في تمام العاشرة صبيحه اليوم التالي.. تمت المقابلة، و قبل أن يرتشف أي منهم شيئًا من فنجان قهوته كانت الصفقة قد انعقدت.

في الغرب اقترح مستشار كاليجولا عليه أن يقام حفلًا كبيرًا لتكريم عدد من العلماء، و أن تحدد ثلاث جوائز مالية، و أن يفوز ذاك الأثري الشرقي فيها بالجائزة الكبرى، و تكون تلك مكافأة إتمام الصفقة؛ كي لا يشك أحد في أية مبلغ يدخل إلى حسابه البنكي.

أثنى كاليجولا على الفكرة، و لم يكن من عادته أن يثني على رأى يدلي به أحد من مستشاريه، و حينها ارتفعت معنويات مستشاره، و أعطى أمرًا مباشرًا لكبير الأثريين لديهم بحفر مقبرة في المنطقة( ج) شريطه أن يتم الحفر سريعًا، و سريًا.. قائلًا

- أريدها ذات ممرٍ طويل، على عمقٍ كبير جدًا، كأنها هناك منذ الآلاف السنين، و لتأمر أفضل النحاتين في المدينة.. أن ينقشوا على جدرانها نقوشًا شرقيه.

أريد من تلك المقبرة أن تبعث للعالم بأسره رسالة واضحة عن أجدادنا.. ثم علت نبره صوته مردفًا :

– أريدها أن تكون أعظم مقبره شرقيه يمكن اكتشافها في التاريخ الإنساني كله.

حينها تعجب كبير الأثريين في المدينة.. معقبًا:

– أعظم مقبرة شرقيه !!

عنفه المستشار.

– لا تناقش .. فقط افعل ما أمرك به.

انتهي المستشار من أوامره لكبير الأثريين، و دعا كاليجولا لانعقاد مجلس وزراء يتم فيه ترشيح أشخاص من حول العالم مختلف المجالات؛ للفوز بالجائزة و بالتكريم.

أعدت قائمة المرشحين، و انفض المجلس على أن يتم الإعلان عن أمر الجائزة دون إعلان قائمه المرشحين.

في التغطية الصحفية لقرار المجلس لاحظ كاليجولا أمر وزيرة عدله، و انشغالها صحفي معارض كان مستشاره قد رباه على يديه، و لكن الصحفي كان قد أتقن اللعبة جيدًا؛ حتى آمن العامة جانبه.

فور انتهاء التغطية الإعلامية تم استدعاء وزيرة العدل لجناحه الخاص، لم يمضِ وقت طويل حتى كان الصحفي قد عاد لمنزله، لم يكد يفتح الباب حتى اقتحم المشهد بعضًا من الحرس، و طبيب من القصر.

حمله الحرس رُغمًا للداخل في الوقت ذاته الذى أمسك كاليجولا ريموت التلفاز بيديه، و راح يبتسم لوزيرته، لم يكن يكترث لأمرها، لكنها قد خالفت القاعدة؛ و حاولت عينيها الخروج من حظيرته.

ضغط كاليجولا زر التشغيل..

وجهت وزيرته نظرة شغف تجاه الصحفي من جديد، الذي ظهر متألقًا في مشهد مسجل على الشاشة الكبيرة، ما هي إلا لحظات حتي انتقل المشهد لغرفه نوم الصحفي، و الذي ظهر ممدًا على فراشه تحت تهديد السلاح.

داعب كاليجولا صدر وزيرته بظهر يديه. بينما ظهر طبيب القصر على الشاشة، و هو يقوم بخصي حبيبها؛ لينتهي أمره.

في اليوم التالي شرعت المدينة في الاستعداد للحفل الكبير، الذي يكرم علماء و فنانون و مبدعون من جميع أنحاء العالم، و قد حدد توقيته بعد أسبوع.

بدت المدينة و كأنها عروس تتزين، و كان جميع العاملون على الأمر يعملون على قدمٍ و ساق؛ كي تظهر مدينتهم في أوج روعتها؛ فحينها فقط سينالون رضا كاليجولا.

أقيم الحفل، و قد دعيت إليه كل محطات التلفزة العالمية. و بعد تأدية النشيد الوطني للمدينة، و الثناء المطول على حاكمها. ألقيت الكلمة الافتتاحية ثم شرع مقدم الحفل في المناداة بأسماء الضيوف، و كان الأثري الشرقي صاحب المقام الأول في تلك القائمة.

نودي باسمه؛ فقام من جلسته بزهو شديد، و صعد بتؤدة للمنصة؛ كي يتم تكريمه، و منحه الجائزة.

على منصة التكريم كان كاليجولا يجلس بصحبة اثنين من مستشاريه. مد الأثري يده ليصافح الجميع بانحناءة، و قد زادت تلك الانحناءة بوضوح حين مد يده ليصافح كاليجولا.

قلده كاليجولا بعد أن صافحه بالوسام الأعلى في المدينة، و في مشهد نقلته و كالات أنباء العالم بأسره. منحه جائزه ماليه تقدر بمليون دولار.

راحت وكالات الأنباء المحلية و العالمية تبث الحفل، انشغل العالم بأسره بأمر القلادة الشهيرة، و التي كان الجميع على علم مسبق بأن المدينة لا تمنحها إلا لشخص واحد فقط كل ثلاثة عقود.

في النصف الآخر من الكرة الأرضية؛ في بلاد الأثري الحارة اشتعل ( هاشتاج ).

*مرفوعو_الرأس_بأبناءنا.

و راح أغلب مستخدمي الإنترنت يعقبون على الـ( هاشتاج )بتعليقاتهم حتى جعلوه في الصدارة.

في الوقت نفسه كانت كل القطع الأثرية مقبرة الشرق، و التي فتحها ذاك الأثري خفية تنهب؛ لتستقر في مدينة كاليجولا غربًا.

في اليوم التالي للحفل أمر مستشار القصر رجاله بنشر إشاعات بين العامة تنص على أنهم بصدد اكتشاف عظيم؛ فالأجهزة الحديثة تقرأ شيئًا معدنيًا على عمق كبير في المنطقة (ج )، و المنطقة (ج) مليئة بالذهب المدفون.

انتشر الخبر بين العامة انتشار النار في الهشيم، فهم يمنون أنفسهم بأحلام الرواج، و رفاهية العيش.

مر وقت ليس بالقليل، العامة يتناقلون الخبر فيما بينهم، و ينتظرون على أحر من الجمرِ.

في الوقت المناسب أعلن كبير الأثرين الغربين عن عثوره على مقبرة عظيمة للأجداد بالمنطقة (ج )، و أنها تحوي مخطوطة خطها كبير كهنة معبد الأجداد، و أن تلك المخطوطة ستغير وجه العالم، و كان قد استدعى العديد من محطات الأنباء؛ لتغطية الحدث، و بدأ يقرأ على مرأى و مسمع من العالم باللغة الشرقية القديمة، و التي كان يتقنها جيدًا.

على الشاشة ظهرت ترجمة المخطوطة.

( هذه رساله الإله إليكم، و باسمه أمركم أنتم، و كل من يحكم هذه الأرض بعدي أن يحافظ على ملكي، و الذي يمتد بطول بلادكم و طول بلاد الشرق وعرضها إن لم تمتثلوا لأمرى؛ حلت عليك لعنتي ).

في الصباح التالي كانت كل وكالات الأنباء حول العالم تبث وجه كاليجولا ، و هو يكشر عن أنيابه، و يعلن بكل عجرفة أحقيته في أرض الشرق .

# عناق الغيب

ودع أمه العجوز و زوجته و طفلته ذات العشرة سنوات. على أعتاب بيت من الطوب الطيني..

كانت الدموع تملأ أعين الجميع؛ فالرحلة الخطرة ذات المصير المجهول، و التي كانت تنتظره كانت تجعل ثلاثتهم مترقبين، يأكلهم الخوف و القلق.

همت زوجته أن تثنيه عن الرحلة، و لكنها كانت تعلم مقدار تعلق قلبه بالأمل البعيد؛ فآثرت الصمت؛ خوفا من أن تفتت عزيمته المتكسرة، لكنه تتطلع لعينيها ففهم ما يجول بخاطرها، و الذي قد بدأ يجول بخاطر أمه هي الأخرى.

فانسحب من أمامهم مسرعًا؛ ليستوقف سيل أفكارهم و البكاء.

استدار فبدت لهم حقيبة ظهره، التي يحمل بداخلها القليل من المؤن، و نوتة قد غلفها بالكثير من الأكياس البلاستيكية. اتخذ طريقه مسرعًا ليستقل الحافلة مع الكثيرين من أقرانه، و الذين لم يجمع بينهم سوى المعاناة، و لون البشرة الداكن.

في صندوق سيارة النقل جلس وسط حشد غفير من الرجال يتخلله بعض النسوة، الأمر الذى دعاه لأن يتفكر قليلًا..متسائلا:

- هل كان من الممكن أن أصطحب أسرتي في رحلة كتلك؟!..

ثم عاد يقول لنفسه.

كون مقاولي الرحلة قد وافقوا أن يكن بيننا نسوة؛ يعني أن الرحلة ستكون يسيرة، و لكنني على أيةِ حال لم أكن أملك ما يكفي من المال لاصطحابهم؛ فثمن قطعة الأرض التي باعتها أمي يكفي لسفر شخص واحد فقط.

كان الحشد حوله صامتًا صمت مطبق، و كل منهم يغني على ليلاه؛ فكما خلف ورائه أسرة. فقد فعلوا جميعا الشيء ذاته؛ فلا أحد يأت من العدم، حتى لو كانت حياته هي العدم ذاته متمثلًا في أيامٍ و ليالٍ.

لم يكن من تجمعوا في صندوق العربة كأية مسافرين آخرين؛ فعادة ما يحمل المسافرون حاجيات ثقيلة؛ كان الأغلبية منهم يحملون فقط حقيبة ظهر صغيرة كتلك التي يحملها معه، يحتضنونها بشدة، و كأنما – هم- يحملون عمرًا في داخلها.

تمضى السيارة مسرعة، و لا تتوقف على الطريق؛ إلا لتحمل على متنها ركاب آخرون، كان الراكبون من الطريق أيضًا يحملون حقائب الظهر ذاتها.

يرن الهاتف النقال للمقاول بين الفينة و الأخرى؛ فيخبر من على الجانب الآخر أن أمامه عدد ما من الأميال ليصل إليه، و كان الجميع ينتظرون على طريقٍ واحد؛ تلك التي تؤدي في نهاية الأمر لعبور الحدود.

يلمح قائد السيارة أحد المنتظرين؛ فيتوقف.. يترجل المقاول، تجري مفاوضات ما، و كان هو يدرك فحوى هذا المفاوضات؛ فقد جريت مثلها معه حين هم بالصعود للسيارة؛ فعلى الرغم من أن المقاول قد تقاضى نفقات الرحلة مسبقًا؛ فهو الآن يطلب بعض المال الإضافي؛ متعللًا بكون الرحلة خطيرة، و أنه قد بذل الكثير من الجهد؛ لتتم على أفضل ما يمكن.

استمر الوضع على ذلك حتى أصبح عدد الواقفين في صندوق السيارة يفوق عدد الجالسين، و كان الليل قد أسدل ستاره؛ فلم يعد أحد المسافرين يرى من الآخر شيئًا.. سوى عيون تلمع مآقيها بحزن مكتوم.

قبيل الفجر عبرت السيارة حدود تشاد، بعد وقت ليس بالطويل توقفت السيارة، و حين لاح ضوء النهار؛ ترجل قائدها و المقاول؛ ليفرغوا حمولة السيارة البشرية على مقربة من بناء مجهول؛ كان السائق و المقاولون يعرفون هذا البناء جيدًا، و قد أفرغوا الكتلة البشرية من صندوق السيارة بإشاراتٍ و بضع كلماتٍ قليلة.

بعدها طرق المقاول الباب ثلاث مرات بطريقة يبدو و كأن هناك اتفاقًا مسبقًا عليها بينه و بين صاحب البناية، انفتح الباب و أشار صاحب البيت لهم جميعًا بالدخول.

في الداخل أخبرهم المقاول بأنهم لابد من أن يقضوا نهارهم هنا، و ألا يحاول أحدٌ منهم الخروج؛ حتى يخيم الظلام من جديد؛ فيكون بإمكانهم أن ينسلوا تحت جنحه لاستكمال طريقهم؛ فالليل ستار.

هزت كلمات المقاول شيئًا بداخله؛ فقد تذكر صديقه الأقرب حين ضاقت به الأحوال، كان ينوي السرقة ذات مساءٍ، و طلب مساعدته؛ قال صديقه له ليلتها ذات الكلمات:

- لم لا تساعدني سنذهب ليلًا؛ و الليل ستار.

لم يستطع أن يشارك صديقه ذلك الأمر؛ فلم تكن أخلاقه تسمح بذلك، و لا حتى أخلاق صديقه. لكن رحي الحياة حين تطحن أحدهم؛ فهي غالبًا تقوده إلى حيث لا يريد.

لم يستطع حينها مساعدته بالمال، قد تراجع صديقه عن الفكرة، ظل يعاني من المرض و الجوع؛ حتي أخذه الموت، و ذهب به بعيدًا.

ظل شاردًا في أمر صديقه، و فجأة زاد الهرج حوله.

كان المقاول يطلب المال من جديد؛ ليبتاع للمسافرين شيئًا من الطعام و الشراب؛ يعينهم على استكمال الرحلة؛ دون أن يصيبهم الوهن..

على مقربة من البناية كان هناك تجار يدركون مستقر هؤلاء الركاب و وجهتهم؛ لذا باعوهم كل شيء بضعف ثمنه حتى زجاجات المياه، و المعاد تعبئتها من مياه الصنبور كانت ذات ثمن.

لم يكن أحد من المسافرين يعرف هل كانت تلك الأسعار بترتيب مسبق مع المقاول أم لا، و لا كان أحدهم يملك حق الاعتراض لا على الأسعار و لا على أي شيءٍ آخر؛ فمنذ أن صعدوا للسيارة؛ صار قانون المقاول هو السائد؛ و عليه فقد راحوا يلتقطون مؤنهم، و يأكلون شيئًا منها في صمت.

تطلع حوله من جديد في حين خفتت الأصوات، صار الصمت المطبق، و الأفواه المفتوحة التي تلوك الطعام هو المشهد الرئيسي في الغرفة، و التي كانت خالية من كل شيء حتى من الأكسجين؛ فلم يكن بها إلا بعض قطع سجاد شرقي مهترئ .

عاد ليفكر فيمن تركهم خلفه.. متسائلًا في نفسه:

- ترى كيف حال أمي الآن؟ أما زالت تبكي ؟! و كيف هي زوجتي و طفلتنا ؟؟

كانت طفلتنا أحيانًا كثيرة تتلوى جوعًا و أنا بجوارها؛ فالأطفال لا يستطيعون تحمل الجوع لوقتٍ طويل.

ترى هل ستنجو من براثنه في بعدي؟!..

لقد باعت امي قطعة الأرض، التي كانت تمدنا بشيءٍ من الطعام، و كنا نستند عليها في الحياة؛ لأجل سفري. يبدو أنني بسفري هذا قد زدت الأمور صعوبة، و لكن لم يعد هناك مجالا للتراجع.

بعدها سرحت عينيه في البعيد، راح يمني نفسه بأحلام الثراء، و العيش في ظل الديمقراطية التي لطالما سمع عنها، فهو مسافر للحلم.. لأوروبا.

كان الشباب في قريته يطلقون عليها جنة الله على الأرض..

أخذ يشحذ همة ذاته.. قائلاً:

- سأنحت في الصخر؛ كي استقدم أسرتي، و سأعوضهم عن كل شيء.

أخذ طيلة اليوم يسد جوعه و عطشه بالقليل من الطعام و الماء؛ كي يستطيع استكمال الرحلة بما تبقى معه من أموال، في الليل صعد مع جميع المسافرين للشاحنة من جديد، و التي بدأت تشق طريقها في صحراء ليبيا ..

كانت الأراضي الليبية قلقة بطبيعة الحال، و سير الشاحنة فارغة فيها محفوف بالمخاطر. فماذا إن كان عليها هذا الكم من البشر!!.. لذا فقد لاذوا جميعًا بالصمت من جديد.

لم يكن أحدهم يعرف أحدهم عن الآخر بجانبه سوى الخوف الصاخب، و الوجع الذي يعلو قسمات وجوههم..

كان يتفحص الوجوه من حوله بين الحين، و الآخر.. متسائلًا في نفسه :

- ماذا حدا بكل هؤلاء ليخوضوا غمار ذلك المجهول.. ماذا حدا بهم ليخوضوا الغيب، و يخبروا الموت ؟!..

و لكنه عاد يرد على سؤاله هازئًا ..

- ما حدا بهم هو ذاته ما حدا بي.

كانت الصحراء طويلة جدًا كطول أيام الترقب، و ربما أكثر. لم تستطع السيارة قطعها كاملة في الليل؛ فاستكملوا طريقهم تحت شمسها الحارقة.

في صندوق الشاحنة كانت تجلس فتاة عشرينية جذابة؛ كان الجميع يلتفتون إليها راغمين و هو معهم؛ فلها ابتسامة لا تكاد تفارق فمها رغم كل شيء، كان يلتفت إليها بين الحين و الآخر محاول ألا يثير انتباهها، و كأن ابتسامتها تلك تبعث في نفسه الأمل. ربما كان الجميع ينظرون إليها؛ لأنها تثير بداخلهم الشعور ذاته.

توقفت الشاحنة من جديد لبعض الوقت، و استقر الجميع في خيم على مقربة من درنه تلك المدينة الساحلية.

هاتف المقاول أحدهم على مقربة من السواحل الليبية، و بلغه رسالة ما بطريقة مقتضبة، لم يدرك أيًا من المسافرين فحوي المكالمة.. رغم كونهم قد سمعوها جيدًا.. لكن من على الطرف الآخر قد استوعبها.

همَّ من كان على الطرف الأخر بتجهيز القارب؛ الذي سيخوض به المسافرون عباب المتوسط، و يعاندون به الأمواج العاتية.

و حين أسدل الليل ستاره من جديد كان القارب المطاطي الكبير يرسو على الشاطئ. بعدها تم اصطحابه هو و أقرانه للشاطئ؛ كي تبدأ رحلتهم مع قوى أخرى للطبيعة.

استقلوا جميعًا القارب و أنطلق بهم ليلًا، و في الصباح، و بينما هو يتفحص وجوه أقرانه لاحظ غياب إحداهن، و ربما قد لاحظ غيابها جميع من على القارب.

إنها هي.. تلك الفتاة التي كانت ابتسامتها لا تفارقها طوال الطريق.

لم يكن يعرف لها اسمًا كي يستفسر عن غيابها، و بالتأكيد لم يكن السؤال متاحًا.

تساءل في نفسه:

– تُرى هل كانت تنوي منذ البدء أن تمكث في الأراضي الليبية؟!.. بعدها أدار في نفسه سيناريو تخمينيًا منع الفتاة من الصعود.. قائلًا :

- لا أدرى.. ربما كانت ترتب لعمل ما هناك. أو لربما كانت قادمة من أجل قريب أو حبيب، و هذا ما جعلها مطمئنة طوال الطريق. لم أرها أبدًا قلقة كحالنا جميعًا!

استهجن أن يفكر بغياب الفتاة طويلًا، فهي على أية حال قد وصلت وجهتها، أما هو و أقرانه؛ فمازالت الطريق أمامهم طويلة.

راح يستعيد ذكرياته مع طفلته، يتذكر كيف كانت تحمل معه جالونات الماء لبيتهم، و كم كان يشفق عليها من ذلك؛ كون جسدها هزيلًا جدًا، راحت تداعب ذاكرته آخر صورة التقطتها عيناه للأسرة بكاملها، و هو يودعهم على باب منزلهم الطيني.. بينما هناك في ليبيا، و تحت شمس الصحراء الحارقة كانت الفتاة ذات الابتسامة الدائمة.. تتمدد منزوعة الأحشاء.. ممزقة الثياب، على جسدها ظهرت آثار عنف شديد، و بجوارها ترقد حقيبة ظهرها فارغة..

كان المشهد عبثيًا، لكن ملامحها كانت مستلمة تماماً، و حتى ابتسامتها صارت أوضح من ذي قبل؛ فعلى الرغم من كل ما مرت به. إلا أنها ترقد بسلام غير عابئة بالعالم.

في عرض البحر أخذت الرياح مع الأمواج يعبثن بالقارب، كانا سويًا يعزفون علي مطاطه أشد سيمفونيات موتسارت الجنائزية عنفًا.

تساءل في نفسه من جديد.

– هل يستطيع – هذا القارب- عبور المتوسط، و استكمال الرحلة حتى النهاية؟!

لم يكد يفكر في إجابة مخاوفه حتى سقط أحد العجائز طريحًا من إعياء الرحلة، تطلع جميع من على القارب للعجوز، و اقترب منه البعض؛ محاولين إنقاذه.

مال القارب تجاه الجانب الذى سقط به العجوز؛ فعاد أغلبهم لأماكنهم، و راح من تبقى منهم يتابع نبض العجوز، و يحاول إفاقته، و لكن الأمر لم يجد نفعًا؛ فقد سبق السيف العذل؛ ففاضت روحه، و انتهي كل شيء.

تملك الخوف الجميع، و لكنهم عادوا للصمت من جديد، و كأن كل منهم راح يترقب أن تحين لحظته هو الآخر.

لم يكن أحد يعرف من العجوز، و لا ما كانت ديانته كما لم يكن أحد يعرف اسم الفتاة، و كأنهم جميعًا خرجوا لتلك الرحلة؛ أجساد بلا هوية.

لم يمهل المقاول المسافرين الوقت؛ كي يستوعبوا الأمر، و أمرهم بأن يلقوا بجثة العجوز في الماء؛ كي تخف حمولة القارب.

كانت تلك أولى المرات التي يرى فيها الدفن بالماء؛ فهو يعلم أن هناك من يدفنون موتاهم بالتراب، و من يدفنون بتوابيت، و من يحرقون جثث موتاهم، و لكن أن تلقي جثة أحدهم أمام عينيه بالماء، و أن يكون مشاركًا في إلقاءها. لم يكن ذلك بالأمر الهين عليه؛ ارتج الموج مهابة الأمر، و ارتجت أوصال من على ظهر القارب جميعًا.

بعد وقت استجمع الجميع رباطة جأشهم، و أخذ كلٌ منهم يدعوا ربه بالرحمة للعجوز؛ فدعوا أربابًا عدة. مات العجوز بعيدًا عن وطنه و أهله، و غاصت جثته في البحر مبتعدة، و ابتعد القارب، و لكن أعين البعض ما زالت متعلقة بمكان إلقاء الجثة. استمر الوضع هادئًا قرابة الساعة؛ و فجأة علا الموج و اشتد، و ضرب قاربهم المطاطي ، و راح يملأه بالماء. زاد الهرج و المرج على القارب، و كاد ينقلب بهم حتي هدأهم قائده، و دعاهم لأن يتعاونوا جميعًا؛ كي يفرغوه من الماء؛ ليصلوا وجهتهم سالمين. كانت أوامره لهم صارمة.. بدت كأوامر قائد بالجيش، و قد انصاعوا جميعًا لأوامره.

كان ذلك أول موقف من نوعه يتعرض له المسافرون بينما لم تكن تلك أولى رحلات قائد القارب؛ فقد خبر مثل تلك المواقف من قبل، و يعرف كيف يتعامل معها جيدا، و كانت تلك مرحلة أخرى سقط فيها رجلان آخران، وراحوا يصارعون الموج؛ كي يعودوا للقارب، و لكنهم لم يستطيعوا لذلك سبيلًا.

استمر المسافرون على حالهم تلك؛ فالموج يعبأ القارب بالماء، و هم يفرغونه قرابة الساعتين، و لم يستوعب أحدهم سقوط الرجلين.. إلا بعد أن هدأ الموج.

عاد لجلسته من جديد، و راح يقول في نفسه:

- ثلاثة رجال .. ترى من يكون القادم؟!..

و كأن البحر يطلب منا بين الحين و الآخر، أن نقدم له قربانًا.

لاحت الدموع في عينيه، و هو يرقب الباقيين حوله، و يتساءل.. هل سنصل سالمين؟!

كان كل مسافر حوله شارد بذهنه، و يدور في عالمه الخاص، و ما زالوا صامتين رغم كون البحر شاسعًا لا يعبأ بصخب الأصوات، و لا بسقوط الارواح.

صاح بهم قائد القارب أخيرًا .. قائلًا:

- ها هي الأراضي الإيطالية قد لاحت في الأفق.

تنفس الجميع الصعداء، و راح يحدوهم الأمل من جديد، و لم يمض وقت طويل حتى أمروا بأن يقفزوا من القارب؛ ليكملوا ما تبقى من المسافة سباحة على أن يجتمعوا في مكان قد جهز لهم خلف الحدود.

قفزوا جميعا للماء متشبثين بحقائب ظهرهم، منهم من استطاع الوصول، و آخرون لم يستطيعوا إليه سبيلا.

و كان هو ممن استطاعوا الوصول إلى المخبأ كانت ثيابه المحملة بالماء، و الرمال هي الشيء الوحيد الذى يجعله على يقين أنه ما زال حيا.

التقطت أنفاسه، و أخرج النوتة الصغيرة من حقيبة ظهره ، و راح يفك أكياس النايلون من حولها، كان قد غلفها بهذا الشكل؛ لئلا تبتل؛ فتنجوا من الموج إن نجا هو.

بعد أن أستخرجها من الأكياس ثم أمسك بقلم، و راح يخط كلمات لزوجته..

حبيبتي ، لقد أُرغمنا على القفز من القارب قبالة السواحل الإيطالية، و لم تكن المسافة بالقليلة، و قد أعياني العوم كنت على وشك الاستسلام، و لكنني كلما خارت قواي كنت أسمع صوتك عبر البحر يناديني؛ فأعود للسباحة من جديد.

المقاول أخبرنا أن هناك مكانًا مجهزًا لنا، هذا حقيقي. أنا أكتب لك منه الآن، و لكن هذه المرة من جهزه سماسرة إيطاليون. ذوي بشرة قوقازية.. زرق العيون.

كان يعلم أن كلماته لن تصل زوجته بأية حال؛ فاستفاض معبرًا عن كل ما بداخله.

حبيبتي ها أنا الآن في المخبأ، ليتني لم أصل إليه، و قضيت في الرحلة كمن قضوا لكن الحياة يبدو أنها لم تأخذ نصيبها من دمائي بعد.

بعيدًا صرنا يا حبيبتي عن القارة السمراء ..

كان المقاول من أبناء جلدتنا يدرك ذلك، و المقاولون الإيطاليون أيضًا، و لم يكن هناك من لا يدرك سوانا نحن من قطعوا طريق الموت رغبة في الحياة.

لقد رأيت من أتي بنا يتقاضى ثمننا؛ فقد دفعه السيد الأبيض..

بعدها أدركت أنني خرجت من عبودية كنت فيها لنفسي و لكم.. إلى عبودية صرت فيها ملكًا لسيد ..

أنا هنا و أقراني ممن نجوا لقد صرنا في منطقة اللا عودة.

لم يكد يفرغ من رسالته..

حتى أقتحم عددًا من الرجال القوقازيين حجرة النساء .. و تعالى الصياح.

# أبيض شاهق

كانت تمضي في الطريق مع طفلتها ذات العشر سنوات. مترقبات لكل شيء مثلهن مثل كباقي أبناء جلدتهن؛ فالطريق ليست آمنة؛ رغم كونه يوم كباقي الأيام؛ لم تكن هناك أية أحداث استثنائية، و لكن كل شيء يجعلها تستدعي الحذر؛ بداية من ملامحها المختلفة بعض الشيء، و حتى ملابسها المحتشمة وصولا لغطاء رأسها؛ و كأنه صار لزامًا على كل البشر في تلك البقعة من العالم أن يصبحوا نسخًا مكررة من بعضهم البعض؛ و إلا تعرضوا للقمع.

كان كل خروج من المنزل بالنسبة إليها مغامرة جديدة؛ قد تعود لأسرتها بعدها و قد لا تعود.

و لكنها كالجميع صارت تعيش يومًا بيومه، و تحاول أن تمارس الحياة بالقدر المتاح أمامها؛ فالحياة المتجمدة بلا أية أحداث تنتهي بلا أية جدوى تذكر.

في ذلك اليوم و مع أول خطواتها خارج المنزل رجح ميزان اللا عودة.

كانت تدير عينيها في الطريق يمينًا و يسارًا، و تلتفت خلفها بين الحين و الآخر في محاولة بائسة لتلافي الخطر.

فجأة اقترب منهن شرطيًا شاهرًا سلاحه، و كأنما هو صاعقة هبطت من السماء؛ مستوقفًا إياهن.

تسمرت هي بمكانها، و لم تستطع الحراك بينما تملك الخوف الصغيرة، و قد فزعت من حكايات القهر التي لطالما سمعتها من الجيران؛ فقد كانت كل الحكايات تبدأ بشرطي كهذا الذى يستوقفهم، و تنتهي بمآسي كثيرة. راحت الصغيرة تركض هاربة.

التفتت أمها خلفها مسرعة لتستوقفها، و لكن رصاصة خرجت من مسدس الشرطي صوب رأس الطفلة؛ كانت كافية لفعل الأمر ذاته.

ما كادت تدرك أن ابنتها قد سقطت صريعة؛ حتي سقطت هي الأخرى مغشيا عليها، كان صوت ارتطام رأسها بالأرض قويا، و لم تدرِ بعدها بأية شيء.

لم تدر كيف اقتادوها للمعسكر، فقد أفاقت لتجد نفسها ملقاة فوق أرضية باردة، و محاطة بعدد من النسوة يشبهونها، و لكنها لم تعد تملك من الحياة شيء غير لباسها الذي ترتديه؛ حتى هاتفها النقال و حقيبة يدها تمت مصادرتهما.

لم تدر كيف أفاقت، و لا يبدو أن أحدهم ساعدها على الأمر، و لكنها فجأة تذكرت فيما كانت إغماءتها، فعلا صوت صراخها و نحيبها.

أخذ النسوة يتطلعون إليها بصمت، دون أن تقترب إحداهن منها؛ فقد كن يعلمن بعين خبرتهن ماذا ستكون عاقبة صراخها.

في ذلك الوقت أطل من خلف السياج في الباب الحديدي رجل ذو ملامح قاسية.. نهرها بعنف لتصمت، و لكنها لم تستطع للصمت سبيلًا؛ فقد ماتت طفلتها، و هي الآن معتقلة؛ لم يعد لديها من الحياة شيئًا قد يشفى غليلها.. سوى النحيب.

مرت دقائق و هي على هذا الحال. و فجأة انفتح الباب الحديدي، ما هي إلا لحظة حتى التصقت جميع النسوة بالجدار، و بقيت هي بمفردها في وسط الغرفة.

دلف الحارس المتجهم للداخل، و انهال عليها صفعًا بكفيه؛ لتكف عن النحيب.. ثم ركلها ركلة شديدة، و خرج متأففًا.

و لم يكد الحارس يغلق الباب حتى انفتح من جديد. كانت النسوة ما تزال على وضعهن، لم يكن الحارس هو من فتح الباب هذه المرة؛ فقد دلفت للداخل امرأة قصيرة القامة.. نحيلة الجسد.. صارمة الملامح.

كانت ترتدي زي ممرضة، راحت تقترب منها بخطوات ثابته، و هي ما تزال ملقاة على الأرض.. ثم قالت بلهجة آمرة:

- ذراعك ...

و بالطبع لم تسألها الأم لما ؟! فقد كانت تتلاشى أن تصفع من جديد، و لم تكن ملامح المرأة تشي بأنها من الممكن أن تجيبها.

كشفت الأم ذراعها بصمت؛ إذعانًا لأمر الممرضة؛ فحقنتها الأخيرة بمخدر ما؛ ليساعدها على النوم؛ كي تسلبها صوتها أيضا، و يرتاح الحراس من نحيبها. فمهما كان من فقدته؛ فالأمر لا يستدعي أن تزعج الجميع من حولها، و كأن الإنسان حين يعمل في مراكز الاعتقال؛ مجبر على أن يصير آلة باردة مجردة من كل مشاعر الإنسانية..

لم تمض سوي ربع الساعة، و راحت بعدها الأم تغط في نوم عميق، كانت نومتها ثقيلة و طويلة، بلا أي أحلام و لا حتى كوابيس، و كأنما هي إغماءه ليس إلا !!

مضت قرابة العشر ساعات، هي على هذا الوضع بعدها أفاقت مترنحة، جالت بنظرها في الغرفة و التزمت الصمت. كانت النسوة من حولها أيضا يتطلعن إليها في صمت.. ثم فقدت الإحساس بالوقت، و راحت الأيام تجرى من حولها؛ فلا هي تدرك ليل أو نهار؛ كانت النافذة

الوحيدة بتلك الزنزانة نافذة داخليه، و الإضاءة الشديدة لا تكاد تنقطع عن الزنزانة طوال الأربعة و العشرون ساعة.

لم تكن الأم تستغرب ذلك الأمر؛ رغم تنافيه مع توجه السلطات في البلاد لتوفير الطاقة؛ فالإضاءة البيضاء الشديدة مع الجدران البيضاء؛ كانت تقود الإنسان ليصاب بنوبات الصرع و الجنون، و كان الحراس و من عينهم يدركون هذا الأمر جيدًا.

ظلت تصحوا كل يوم على عصا الحراس و ترديد النشيد.. ثم تأكل مع قريناتها بالزنزانة الفتات الذي يقدمونه إليهن رغمًا؛ فلم يكن هناك شيء في هذا المكان يمكن أن تفعله بمحض إرادتها، لا هي و لا التسعة عشر امرأة الأخريات.

تطلعت حولها.. تفحصت في وجوه النسوة، كانت دموعهن تختلط بالفتات في أطباقهن فيأكلونها؛ لئلا يسمع أحدهم لها صوتًا.

دارت الأيام بها دورتها؛ فجميعها متشابهة حد التطابق.

في الصباح الذي يعرفه الحراس وحدهم ينفتح باب الزنزانة. يدلف الحراس للداخل و يفيقون جميع النزيلات بلسعات عصيهم، يأمرونهم بالاصطفاف و ترديد النشيد.. ثم يأت بعدهم عمال الطعام. و في الظهيرة تأتي ذات الممرضة بملامحها الصارمة، و تحقنهن جميعا بمادة ما.

كانت هذه الحقنة تختلف عن تلك التي حقنتها بها في البداية؛ فلم تكن إحداهن تترنح أو تنام بعدها.

ها هي من جديد لا تعلم ما حدث؛ فقد أفاقت على وجع شديد أسفل بطنها، و كأن أحدهم يقوم بتمزيقها. حاولت النهوض و لكنها لم تكن في تلك الحالة التي تستطيع فيها ذلك. ترنحت رأسها و جذبت جسدها للأسفل بينما هي تحاول جاهدة أن ترفع عن نفسها ثياب المشفى، و التي لم تكن تعلم أبدًا متى أو كيف ارتدتها.

ما إن رفعته؛ حتي ظهرت أسفل بطنها غرز جراحية كثيرة؛ فدب الذعر في نفسها، و كانت تعلم ما ذلك الجرح؛ فأسفله غرزا جراحية بدت كذكرى أخيرة من يوم ولادة طفلتها التي قضت.

سقطت رأسها على الفراش، و كانت حجرة المشفى من حولها أيضًا ذات جدر بيضاء، و إضاءة بيضاء شديدة.

عادت بذاكرتها للوراء؛ فقبل أن يتم اعتقالها كان الأبيض يتفشى في خزانة ملابسها؛ كان من أكثر الألوان التي تفضلها. لكنها في تلك اللحظة قطعت على نفسها عهدًا إن رأت خزانة ملابسها من جديد؛ فستلقى بكل القطع البيضاء في القمامة.

أخذت تحدث نفسها ، و هي محدقة بالجدار البارد..

- ليت اليوم كان يشبه البارحة ثم حدقت بالجدار بعمق .. متسائلة:

لماذا لم أصب بعد بالجنون بعد وفاة طفلتي، و منذ أن اعتقلت في تلك المأساة الحية؛ فالجنون ملاذًا آمنًا لمن هم في مثل حالي؛ هو رحمة تهبط عليهم من السماء، و تنسيهم كل ما مر بهم.

كانت الدموع تنهمر من عينيها، تختلط بالأسئلة المعلقة، حديث نفسها الذبيحة، و هي تقول في نفسها:

- شتان ما بين الأبيض الذى كنت أعشقه، و بين هذا البياض..

يشبه هذا الجدار ذاك الذى أجبرت على التسمر أمامه لأشهر.. في زنزانة لا أستطيع أن أنام فيها على ظهري؛ من فرط الزحام، و لم أكن حتى أستطيع أن أتفهم لماذا اعتقلت و لا يستطيع أحد بالعالم أن يخبرني لماذا؟!..

لقد أطلق أحدهم الرصاص على رأس ابنتي.. فاعتقلت أنا!!

كان مشهد طفلتها في تلك اللحظة لا يزال يتكرر أمام عينها.

في ذلك اليوم كان الشارع هادئًا على الجانبين، و الصباح ذا أجواء ربيعية.. رغم التوتر و الترقب. كانت طفلتها تمضى بجوارها مرتدية فستانا قصيرًا ذي تنورة واسعة، و تتمايل في مشيتها كعروس بحر يطاوعها الموج.

فجأة يخرق أذنها صوت الرصاصة الفاصلة، التي استقرت في رأس طفلتها. رفعت عينيها للسقف؛ محاولة استيقاف الأحداث، و لكن عينيها لم تحتمل شدة الإضاءة؛ فأغمضتها رغمًا عنها، و انحنت.. متسائلة:

- كيف يكون الأبيض لونًا يرمز للسلام، و يستخدمه شرار بني الإنسان للقتل؟!

استعادت في رأسها تلك الأيام بالزنزانة، و راحت تقول:

- تبًا لمجريات الأقدار؛ لم تمهلني حتى بكاء طفلتي، أي وجع في الدنيا قد يضاهي وجع حزن مكتوم على فراق حبيب.

كنا في الزنزانة زهاء العشرين سيده.. ممنوعات حتى من الالتفات خلفنا.

فخلف الباب الحديدي المسيج أعلاه بفتحات كان يقبع سجاننا..

أتذكر ملامحه القاسية جيدًا. كان يراقب كل تصرفاتنا. ما إن يرفع ذراعه ممسكا بسياج الباب لنهرنا؛ حتى يداهمني وشم ماو تسي تونج.

كان الوشم يحتل مساحة كبيرة فوق ذراعه، و كأنه كان يسعي به لترقية ما !!

كانت فعال البلاشفة الحمراء تحوم في رأسي؛ حين ألمح الوشم كفعال نسور جائعة تقتات على الجيف. فأرواحهم المتعطشة للدماء يبدو أنها لم تكتفي بمن قضوا؛ فقد أورثوا منهاجهم للأجيال من بعدهم، و ها نحن ذا نجني ثمارها ذلًا و قهرًا..

– لماذا أنا و عرقي منبوذون ها هنا؟

ربما لأننا نعبد إله واحد، و هل يضيرهم ذلك في شيء، هم يعصونه و يرتعون في ملكوته فليعبد كل منا من يريد، ليتركونا لشأننا؛ فقد قتل ماو الملايين. و لم يعقب أو يجرؤ أحد في العالم على معاقبته. لا هو و لا أتباعه من بعده !!

كزت على أسنانها .. متسائلة:

- ما بال البشر يرفعون القتلة لمصاف الآلهة!!

أتذكر آخر يوم لي هناك. فقد لمحني الحارس متذمرة بعض الشيء من رؤية الوشم؛ فتح الباب مسرعًا كالبرق، اندس وسط النسوة، و جذبني للخارج من غطاء رأسي.

صفعني يومها عدة صفعات قوية بذات الذراع الموشومة؛ حتي خارت قواي، و سقطت على الأرض..

على مقربة من زنزانتنا كانت غرفة التعذيب، تلك التي كان يأتيني منها يوميًا صوت صراخ نسوة آخريات.

جذبني إليها بعنف حتي كدت أختنق، و أدخلني فيها مرغمتًا.

كنت أجر قدماي من شدة القهر، لكنه ركلني ركلة لم أعد بعدها في حاجة للمشي على قدمي؛ فقد أجلسني إثرها على أريكة بوسط الغرفة، و نزع عني غطاء راسي.. بعد أن كاد يخنقني به ثم رفع سبابته في مواجهتي، و ولى راحلًا.

منذ أرديت طفلتي قتيلة، و الأيام تمر على قلبي شديدة الطول.

أتذكر أنني حينها رفعت يديّ إلى الله.. متضرعة أن ينتهي اليوم أو ينتهي عمرى أيهما أقرب.

و لكن يديّ ما لبثت أن هبطت رغمًا؛ حين اقتحم الغرفة حلاقًا في زي جندي.

كانت عيناه شديدتي الضيق متجمدتين، كأنما قد مات مسبقًا، و يحمل بيديه مقصًا قذر.. تنظر إلي عيناه فلا تدرك هل هذا المقص الذى يحمله بيديه لجز الشعر أم العنق؟!.. حينها تمنيت لو كان للعنق؛ فقد سئمت الحياة، و لكن هكذا هي الرياح دومًا تأتي بما لا تشتهي السفن.

نطقت الشهادة في داخلي، أغلقت عيناي مستسلمة، و ما هي إلا دقائق حتي كان شعرى يكسو أرضية الغرفة.

خرج الحلاق من الغرفة بعد أن بصق بوجهي، و أغلق الغرفة خلفه.

قديما كنت أشاهد في السينما كيف من الممكن أن تقهر المرأة إذا حُلق شعرها رغمًا، و لكنني كنت مغيبة و طامعة فيما هو أكثر من ذلك. كنت أتمنى أن يتحلى ذلك الحلاق بشيء و لو بسيط من الشجاعة؛ فيجذ عنقي عوضًا عن شعري؛ لتنتهي معاناتي.. لكن ذلك لم يحدث..

لم أدرِ بعدها كم مر من الوقت، و لا أدرِ كم مر من الوقت منذ اعتقلت؛ فلم أري شيئًا يجعلني أدرك ما الوقت؛ فلا ساعة حائط موجودة، و لا حتى ضوء نهار.

انفتح الباب من جديد، دلفت للداخل الممرضة الشرسة ذاتها، كانت تبدو يومها كلبؤة جائعه.

أجبرتني على النهوض، و راحت تملأ الحقنة التي تحملها بيديها. لم تكن تلك الأولى من نوعها بالنسبة إليّ لكنها كانت الأخيرة.

كانت الممرضة توقن أني لا أعرف ماهية هذه الحقنه، كان جميع القائمين على المعتقل يعتقدون ذلك، و لكن أعين النسوة في الزنزانة كانت تشي بكل شيء.

كانت أعينهن تشى بالقهر، و سلب أبسط حقوقهن في الحياة؛ أن يكون لهن أطفال.. رغم أن ألسنتهن لم تكن تقدر على البوح..

ترشق الممرضة سن الحقنة في جسدي. فأشعر به و كأنما هو ذات الرصاصة التي استقرت في رأس طفلتي الوحيدة يوم قبض علَّى.

سقطت على إثر الحقنة مغشيًا علَّي، لم يكن الإغماء أحد أعراضها، لكنه في ذلك اليوم كان عرضًا حتميًا؛ فلم يعد جسدي قادرًا على تحمل المزيد من القهر.

كان آخر ما أتذكره هو ملمس شعرى الملقي على الأرض تحت كفاي و وجهي، و رنين النشيد الذى أجبرنا على حفظه، ترددده النسوة بالزنزانة التي جذبني منها الحارس.

كان النشيد في هذا البناء كالواجب المدرسي؛ لابد أن نردده دومًا و لا ننساه.

الأحمر هو سيد البلاد..

الأحمر هو سيد الأرض و السماء..

ما زال النشيد يتردد، و إن كان الصمت المطبق قد أعلن في داخلي. لا أدرك ما حدث لي بعدها؛ حتي استقفت ها هنا .. قبالة هذا الجدار الأبيض.

أنا أعرف هذا المكان جيدًا إنه المشفى التابع للمعتقل..

جاءتني ممرضة أخرى بصحن أرز فاسد، و أتساءل لم يمحنونا الطعام؛ إن كانوا يفعلون كل شيء لينفرونا من تناوله!!. أليس من الأفضل يتركوننا جوعي؛ فنموت.

ربما تكون تلك الطريق الأقرب، وددت لو أرشدهم أحدًا إليها.

لم أسالها عن سبب الغرز الجراحية الكثيرة ببطني؛ مخافة أن أسمع خبرًا لا تحمد عقباه، و لكنها شددت علَّى أن أتناول طعامي كاملًا؛ لأن جسدي في حاجة للغذاء؛ فقد خضعت للتو لعملية استئصال للرحم.

صرخت في وجهها، و لكنها ألقت إليَ بصحن الأرز، و انصرفت.

ليرمقني حارس الغرفة بنظرة معنفة؛ صمت على إثرها طويلًا.

مددت يدي إلى رأسي، لكنني لم أجد شعرًا لأجذبه بعنف كي أزيد معاناتي، دون وعي رحت أكحت وجهي بأظافري، و حفرت فيه خريطة حمراء.

كانت الجروح في وجهي أيضًا حمراء. رأيتها في المرآة المقابلة، و وجدتني رغما عني أتذكر.. كلمات النشيد الذى أجبرت و النسوة المعتقلات في الايام الماضية على ترديده.

- هل كل امرأة تسقط مغشيًا عليها تخضع لعملية مشابهة؟.

لم أستطع أن أجاهر بالبكاء، لكن ملح الدموع الصامتة كان يلسع جروح وجهي، يصلني ما بين الحين و الأخر صوت النشيد؛ فيقض سلام يأسي...

الأحمر هو سيد البلاد..

الأحمر هو سيد الأرض و السماء..

الأحمر .. الأحمر

أسقط على الفراش .. محاولة الاستسلام للموت، و لكن الموت يكون عصيًا؛ حين نرغبه بشدة.

# عود الخيزران
# الرفيع

ليلة 20 مارس

لم تنم زوجة عاصم ليلتها؛ فقد كانت في انتظار أن يزورها ابنها و حفيديها التؤامين؛ ظلت طيلة الليل ترتب في عقلها برنامج للغد. فقد مر وقتٌ طويل منذ آخر مرة رأتهم فيها؛ لابد أن أحفادها قد كبروا الآن، و سترى زوجته أيضًا؛ فهي لم ترها من يوم العرس سوى ثلاث مرات.

كانت المرات الثلاث تتلاقى مع يوم 21 مارس.

في مخيلتها كانت ترتب لاستقبالهم استقبال حافل؛ كي يعاودوا الزيارة من جديد.

قبيل الفجر انسلت من فراشها برفق؛ مخافة أن يفيق زوجها، و اتخذت طريقها للمطبخ.

كان الصباح هادئًا جدًا، لم يكن فيه ما يثير الإزعاج فيه سوى صوت الأواني، و هي تستعمل أغلبها على عجل.

أفاق عاصم على صوت الجلبة..

نظر بجانبه لم تكن زوجته في الفراش؛ فأفاق ليتبين الأمر. في مطبخ بيتهم رآها تدور حول نفسها كنحلة حائرة، حينها بادرها.. متسائلًا:

- حبيبتي ..ماذا تفعلين في هذه الساعة؟!

- أعد غذاءً فخمًا، فلدينا اليوم صحبة على الغذاء.

لم يسألها عاصم عمن عساها أن تكون تلك الصحبة، فقد لمح في لوحة التقويم المعلقة على الحائط ورقة بتاريخ 21مارس ..

عرض عليها حينها المساعدة، و لكنه كان يدرك أنها حين تكون على تلك الحالة؛ تحب أن تفعل كل شيء بمفردها، بالفعل رفضت عرضه هذا شاكرة إياه؛ فتركها و ولى عائدًا للفراش.

أخذ عاصم يتقلب على جانبيه يمينًا و يسارًا، هو يفكر في مجريات الأمور، و يخشى أن يحدث في اليوم أي شيء لا يحمد عقباه؛ فتنهار زوجته نفسيًا.

قبيل الظهيرة كانت زوجته قد انتهت من إعداد طعام الغذاء، و جلسا سويًا ينتظران وصول ابنهم و عائلته..

لم يتناولا طعام الإفطار بعد، و قد نصحته زوجته بألا يفعلا؛ حتي يأكلان بشهية أكبر حين يجتمع شمل عائلتهم. وافقها عاصم و انتظرا سويا بينما يتابعان التلفاز، و مر الوقت عليهما بطيئًا كسلحفاة مريضة.

في الرابعة عصرًا أصاب زوجته الملل من ذلك الانتظار المبهم؛ فأمسكت بالهاتف و هاتفت ابنهما ؛ لتستفسر عن سبب تأخيره.

لم يجب علي اتصالها من المرة الأولى، لا حتي الثانية، لكنه في الثالثة أجاب، كان صوته متململًا جدًا، برر تأخره بأنه يوم عمل شاق، أنه لم منه يفرغ بعد، و بمجرد أن ينتهي سيتحين الفرصة لزيارتهما.

في خلفية المكالمة.. تبادر إليها صوت أحفادها يمرحون حوله، لكنها كذبت أذنيها، و أنهت المكالمة.. قائلة بشيءٍ من الأمل..

-حسنا حبيبي لا تتأخر.. لقد اشتقت إليكم كثيرًا.

كانت دقات الساعة البندولية التي ورثها عاصم عن أبيه تتواتر بين الحين و الآخر. معلنة مرور الوقت، قد غلبهما الجوع، لكنهما ظلا يكابران منتظرين حتى أعلنت الساعة الثامنة مساءً، و هما مازالا متسمرين أمام التلفاز.

ترتكن زوجه عاصم إلية بجسدها، و عيناها ترمقان الهاتف بين الفينة و الأخرى.. بينما كان عاصم ينتظر أن يدير أحدهم المفتاح بالباب ليفتحه.

كانت الاحتفالات بعيد الأم، تأخذ نصيبها الأكبر من البرامج اليومية، و ما بين الحين و الآخر كان يعاد بث أغنية قديمة للفنان محمد فوزي؛ فتتحول الشاشة للأبيض و الأسود، يظهر عليها الفنان الشاب يُأرجح طفلًا صغيرًا، و يمنيه بأماني كثيرة .. قائلًا:

- ماما زمانها جاية.. جاية بعد شوية.. جايبة لعب و حاجات.( 1)

تلك الأغنية كانت من الأغاني التي عاصرها عاصم و زوجته في طفولتهما، و ما زالا يستمعان إليها حتي الآن..

كانت الدموع تطل في عين زوجته وهي ترمق الهاتف؛ منتظرة أن يهاتفها طفلها الوحيد معلنًا قدومه، و لكن الأمر بالنسبة إلي عاصم مختلف تمامًا..

فهو ينظر للطفل الذى يتأرجح على الشاشة، و يشرد بذهنه متسائلًا في نفسه:

- هل فعل والدي – معي- ذلك يومًا؟!..

لا أظن؛ ففي ذاكرتي المحفوظة لا أتذكر غير صياحه المستمر، و عود خيزرانه الذي كان يلازمه كظله.

كم كنت بحاجة إلى أن أتأرجح هكذا في صغري، ما زالت لليوم في حاجة إلى ذلك، لكنني لن أفعل، و لا أجرؤ على التفكير في فعلها؛ فركوب الأرجوحة للكبار في بلادنا يمثل جريمة كبرى. فقد رحل والدي، و الزمان لا يعود أبدًا للوراء.

رن جرس الهاتف المنزلي فهرعت زوجته لالتقاط السماعة.. تطلع عاصم لملامح وجهها، كانت تنذر؛ أنها عادت بخفي حنين. استشف عاصم ما يحدث على الطرف الأخر من ردود أفعالها؛ فقد أتاها صوتًا اعتادوا عليه. كان الصوت لفتاة تعمل في التسويق لإحدى الشركات العقارية، و راحت توالي زوجته بالعروض و المساحات.

كان عاصم يعرف ما فحوى المكالمة؛ لأنها تأتيهم كل يوم تقريبًا، لكن الغريب في ذلك اليوم كان رد فعل زوجته، و التي بادرت الفتاة قبل أن تنهي عروضها بأنها غير مهتمة، و لكن الأخيرة استمرت في فض ما بجعبتها، و كانت مرغمة من رب عملها على فعل ذلك؛ حينها توترت زوجته، و صاحت فيها بنبرة حادة.. قائلة:

- ألا تسمعين؟!.. أخبرتك أني غير مهتمة.

ثم أغلقت الهاتف بعنف منهية المكالمة. لم يسألها عاصم ماذا بها؛ فقد كان يعلم جيدًا، فهي متوترة طوال جلستها بجانبه، الآن فقط صار لتوترها صوتًا مسموعًا؛ كانت تلك أولى المرات التي يرى زوجته بها تصد إحدى هؤلاء الفتيات؛ فهي دائمًا ما تستمع إليهم بصدر رحب، رغم كونها لا تنوي شراء أية عقار، وحين كان يسألها عاصم عن السبب تجيبه.

- حبيبي هذا عملهن، هن مجبرات على ذلك، و أنت تعرف كيف هو سوق العمل.. لا داعٍ لأن نتواطأ مع الواقع عليهن.

عادت زوجته تجلس بجانبه من جديد، و قد تملكها اليأس..

(1) جزء من أغنية قديمة بالعامية المصرية.

لم تكن زوجة عاصم بتلك القسوة التي كانت عليها أمه؛ فقد كانت تقسو بين الحين و الآخر.. فقط بما يكفى أن يؤهل طفلًا ليطيع والديه، و عليه فلم تتوقع من ابنهما كل هذا الجفاء.

لم ينبس عاصم ببنت شفة طوال جلسته، بقيت زوجته صامته هي الأخرى، لكن غلبها الجوع في نهاية الأمر؛ فأراحت رأسها على فخذيه، و أغمضت عيناها.

خفض عاصم حينها صوت التلفاز، و راح يمسد شعرها بأصابعه؛ حتي غطت في النوم،

فجأة علا صوت ضجيج على السلم امام شقته.

أزاح رأس زوجته من على فخذه بحنان بالغ، و قام من جلسته.. ثم نظر من العين السحرية للباب.

كان أطفال جاره الشاب على باب الشقة المقابلة له، يعانقون أباهم، و يتعلقون برقبته؛ فقد عاد إليهم بعد يوم عمل طويل.

حينها أحس عاصم بوجع ما في داخله، لكنه ظل جامدًا مكانه. رأى جاره يخرج من جيبيه حلوي رخيصة، و يمنحها لأطفاله؛ كانت فرحتهم تملأ الدنيا و هم يهللون.

- بابا رجع ..بابا رجع.

حينها أمسك بمقبض الباب.. كان هناك شيء بداخله يلح عليه بأن يتعلق هو الآخر بعنق جاره الشاب، أن يأخذ قطعة حلوى، و لكنه لم يحرك ساكنًا..

ما زال يرقب جاره، و أطفاله من عين الباب السحرية.

اختلط صوتهم في ذاكرته بصوت نداء طفله – عليه - حين كان في مثل عمرهم؛ و حينها انفتح في قلب عاصم جرحًا لم و لن يندمل.

لم يتذكر عاصم أنه يومًا قسى على طفله.. بمثل قسوة أبيه عليه، بالعكس فقد حاول أن يعوضه عن كل شيء، و حتى عن الأشياء التي فقدها هو.

يتذكر أباه بصورته المعهودة؛ لم يكن أبدًا يستطيع مناداته بتلك الفرحة، و لا بذلك العنفوان الذي كان يناديه به طفله صغيرًا.

حينها زفر عاصم بحزن..قائلًا في نفسه:

- كاذب من قال أن فاقد الشيء لا يعطيه؛ فلربما يكون من مثلنا هم الأقدر على العطاء.

كان طفله يهرع إليه حين يعود من عمله، و يتعالى صوت صياحه..

- بابا .. بابا.

وكان أيضًا يتعلق برقبته بالضبط كما يفعل أطفال جاره الآن، و يظل هكذا حتى تعد زوجته طعام الغذاء، لم يكن يصده أبدًا، مهما كان متعبًا.. في حين كان عاصم -نفسه- طفلًا يهرع إلى غرفته؛ بمجرد أن يسمع صوت المفتاح في باب المنزل؛ فمن بالباب هو أباه بالتأكيد، و كان أباه رجلًا شديد القسوة. يعود للمنزل محملًا بعنف لا قبل لأحد به.

مازالت كلمات أبيه ترن في أذنيه.

- أنت فاشل.. ليتني ما أنجبتك.

يصاحب كلمات أبيه صوت عود الخيزران الرفيع، هو يلسع جسده النحيل، و كأنما كان صوت الخيزران متلازمة لأحبال أبيه الصوتية.

كان طفلًا يتوارى خلف جدران غرفته، يظل يذرف الدموع، يلعن ضعفه، و لم يكن أحد يرحمه؛ فالجميع كانوا ينهالون عليه بسياط سطوتهم حتي أقرانه في الصف.

فجأة يشعر بالألم يداهم كفه الأيسر؛ فيشد عليه بيمناه.

صارت كفاه الآن أكبر، و اصبح جلدهما متجعدا ..

و لكنه يعرف ذلك الألم جيدًا؛ فهو يداهمه منذ طفولته.

كانت المرة الأولى التي يشعر فيها به؛ حينما انتزع أحد الأولاد بالمدرسة ( الساندويش ) من يده؛ فلسرقة الشيء الذي يحمله الإنسان في يده وجع لا يضاهيه وجع.

تذكر عاصم ما حدث يومها. فقد كانت تلك أولى المرات وأخرها التي حاول فيها عاصم أن يتحلى بالجرأة؛ فقد هم أن يستعيد ( الساندويش )، و لكن الولد انهال عليه باللكمات ومعه أصدقائه، و كان عاصم بلا أصدقاء يدافعون عنه.

رمقه الأطفال في المدرسة حينها بعينين متفحصتين، و لكن أحدًا لم يقدم على الدفاع عنه.

بعدها توارى عاصم الطفل عن أعين الجميع في حديقة المدرسة الخلفية ، وراحت دموعه تنساب بحرقة.

كان ذلك اليوم يمر أمام عينيه بتفاصيله، و كأنه يحدث الآن..

فها هو يعود للمنزل، ويهرع لغرفته، تدخل أمه للغرفة علي إثره، تسأله عن سبب اتساخ ملابسه، وتلمح الدموع في عينيه؛ فترمقه باحتقار .

– الرجال لا يبكون .. أنت طالع لمين ؟!

بعدها تنصرف أمه عنه، يحبس دموعه بداخله، و يظل طيلة الوقت يؤنب نفسه أنه ليس قويًا بما يكفي؛ ليمنع أباه عن ضربه أو ليوقف نظرة أمه الدونية إليه.

يهدأ الصخب على سلم العمارة، يدلف جاره للداخل مصطحبًا أطفاله، و يغلق الباب خلفه.. ينبهه صوت إغلاق الباب أن وقفته خلف العين السحرية قد طالت؛ فينسحب.. عائدًا للداخل.

يلقي نظرة حزينة على زوجته، التي نامت على مقربة من الهاتف، و يدخل لغرفة طفله.

لم يعد ابنه طفلًا اليوم؛ فقد بلغ الثلاثين من عمره، و أصبح له بيت مستقل وأسرة مستقلة.

كان عاصم قد ساهم بالكثير في بناء ذلك البيت، وتلك الأسرة؛ فقد حاول أن يتلاشى كل أخطاء أبيه معه، و هو يربي ابنه، ولكن يبدو أن ذلك أيضًا لم يجد نفعًا..

يدير عاصم مقبض الباب بهدوءٍ شديد؛ خشية أن تفيق زوجته، و ينفتح باب الغرفة، وتنفتح معه دوامات الماضي والحاضر.

يزفر عاصم بحزن.. قائلًا في نفسه:

- كما أن هناك مجرمون بالولادة.. هناك أيضا تعساء بالولادة؛ تكون التعاسة في حياتهم قدرًا لا يستطيعون الفكاك منه، وأنا على يقين من أنني أحد هؤلاء.

في الغرفة.. كان كل شيء ساكنًا، و لكن طفله كان يمرح و ينادي عليه ...

- بابا ... بابا.. غير آبه بشيء.

اقترب عاصم منه ليحتضنه، و لكنه ما لبث أن تلاشى؛ ليجد نفسه محتضنًا الفراغ.

على الحائط كانت هناك العديد من الصور، والتي تجمعه بطفله في مراحل عمرية مختلفة.
تركزت عينيه على صورة بعينها كان فيها يحمل فيها طفله فوق كتفيه.

و راحت الدموع تنساب من عينيه .. محدثًا إياه:

- ماذا فعلت أنا وأمك؛ ليتكون كل هذا الجفاء بداخلك تجاهنا؟.. لقد بذلت قصارى جهدي؛ لأعوضك عن كل شيء افتقدته في صغرى. كل شيء كان يأتيك، و حتى قبل أن تطلبه كنت أربيك لتكون سندًا لنا ..

أتدرى لم يفعل أبى أية شيء من هذا؛ كنت وسط أقراني طوال الوقت أشعر أني يتيم.

كانت ضربات سوطه تجعلني الأكثر تفوقًا بين أقراني في الدراسة، حين يستدعونه لمجلس الآباء لا يأتي، و كان على التعلل بأمور عدة لأبرر ذلك. كان المعلمين في مدرستي يعلمون أني أكذب لأمرٍ ما؛ فالطفل المقهور أوضح ما يكون بالنسبة لمعلم ناضج، لكنني على العكس من أبى؛ فقد كنت أتعمد مقابلة معلميك، أذهب لمدرستك بين الحين والأخر، استغللت نفوذي؛ ليعلم أقرانك أن لك ظهرًا تستند إليه، و أنك لست يتيمًا كأبيك؛ فيقومون بإيذائك.

أمسك عاصم حفنة من المناديل الورقية، و راح يكفكف سيل دموعه؛ مخافة أن تراه زوجته.. ثم وجه حديثه لطفله من جديد.. قائلًا:

- أتدري؟!..كان جدك أيضًا ذا نفوذ، و لكنه كان يحب أن يراني دوما مهزومًا!

حتى أمي لم تبرر لي يومًا تصرفاته، كنت أراقب أمك وهي تأخذك في حضنها بعد أن تعنفك، أحسدك عليها، و لم أكن لأجرؤ أن أطلب منها أن تفعل ذلك معي؛ فهي لم تعنفني إطلاقًا، و أنا رجل ناضج، و النساء لا يتفهمون مآسي الطفولة.

لم أطلب منها يومًا أن تساعدني في ذلك الأمر، كان يكفيني فقط أن أراها تحنوا عليك.

رمقه طفله من فوق أكتافه بعينين مذهولتين، وكأنه لا يفهم شيء مما يقوله.

فبادره عاصم

- فيم الصمت لقد صمتت طويلًا لأجل أمك. حتى لا أكون أنا من يفتح ذاك الباب المغلق، يعرى جفاءك أمامها، ولكن جفاءك صار يأكلها. لقد أصبحت هزيلة النفس والجسد.

كان الجوع قد تملك من عاصم أيضًا، و وهن جسده...

في ذات الوقت الذي دق فيه جرس الباب؛ فقامت زوجته متهللة لتفتحه، كان على الباب ابنها و أحفادها، ها هو انتظارها لم يضع هباءًا؛ فقد أتوا ليعايدوها، و يمنحوها الهدايا.

تهلل عاصم لرؤيتهم، و لرؤية زوجته و قد عادت إليها الحياة.

دلفت زوجته إلى المطبخ، راحت فرحتها بقدومهم تعاند وهن جسدها، عضة الجوع التي تأكلها، و أخذت تعد المائدة، و أحفادها يساعدونها كانت في أوج فرحتها.

خرج عاصم من غرفته على صوت الجلبة، فهرع إليه ابنه؛ ليحتضنه، وتعلق أحفاده بعنقه و راحوا يهللون..

- جدو عاصم .. جدو عاصم.

مد عاصم يده في جيبه؛ ليمنحهم الحلوى التي ابتاعها من أجلهم، كانوا يرمقون ما ستخرجه يداه بشغف يشبه ذلك الذي يراه دائمًا في عين أطفال جارهم.

كان الطفل المعتقل بداخل عاصم يتفهم مشاعر أحفاده جيدًا، يفعل كل ما يمكن أن يسعدهم، و لكنه كان يتساءل في نفسه:

- هل ما يفعله لأجلهم يسعدهم حقًا؟!..أنا لا أراهم في العام كله سوى يوم واحد. هل كان هذا اليوم كافيًا؛ ليجعلهم يتفهمون ما معنى أن يكون لهم جدًا يحبهم.

مد عاصم يديه في جيوبه، أخرج الحلوى، منحها لأحفاده، و لكنه أفاق على صوت ارتطام أعقبه صرخة

فزع عاصم من نومته، و هرع لصالة منزله.

كانت زوجته قد تقلبت في نومتها، وسقطت من فوق الأريكة.

# جحيم سيرابيون

كان شرار النار يتطاير من حوله طيلة اليوم في كل اتجاه؛ يصنع ثقوبًا في ملابس عمله المتسخة، و يلسع جسده ما بين الفينة و الأخرى؛ فلم يكن هناك شيء يقيه الشرار سوى ذلك الواقي المعدني، الذي يحمله على مقربة من وجهه، و ينظر من خلاله بينما هو يعمل ماكينة اللحام في القطع المعدنية أمامه.

كان يوم عمله قد شارف على الانتهاء، لكنه لم يستطع إنجاز عمله كاملًا بعد؛ فاضطر للتأخير، و كأنه يعاقب نفسه؛ فهو أيضًا من قبل لم يكن يسمح لعمال مصنعه أن ينصرفوا قبل أن ينجزوا مهام يومهم كاملة، و كان يعلم أن أمر كهذا مرفوض في قوانين العمل، و لكنه كان يمنح القائمين على الرقابة بعض الأموال؛ فيلتحفون بغطاء وثير؛ ما جعله يتمادى في أسلوب إدارته المتعسف.

منذ اليوم الأول الذي التحق فيه للعمل بتلك الورشة لم يجرؤ يومًا على العودة للبيت قبل إتمام عمله، و كأنه يخشى أن يقع تحت طائلة خصومات صاحب الورشة أو على أقل التقديرات تحت طائلة كلمات لاذعة يسمعه إياها.

يتذكر كل ما مر به.. بينما يتطاير شرار النار من حوله؛ فقد انتقل للعمل في ورشة حدادة؛ لكسب قوت يومه؛ بعدما قصف مصنعه من قبل البنائين، و تمت تسويته بالأرض.

يشرد بذهنه في حجم الخسائر والديون، التي أصبح عليه أن يسددها.. فتنهار قواه، ولا يستطيع الاستمرار في العمل.

تمنى في نفسه لو كان هناك - في مصنعه – حين قصف، لكنها ترتيبات القدر، والتي شاءت – له- أن يستمر على قيد الحياة؛ حتي يقف و يعمل هنا.. بعدما كان يجلس بتعال فوق كرسي الإدارة، و كان الآمر الناهي في كل شيء.

تراود ذاكرته أحداث تلك الجمعة بكافة تفاصيلها..

كان جالسًا مع زوجته و أطفاله يتابعون التلفاز. فجأة إذا بخبرٍ عاجل يتصدر الشاشة، و كأي صاحب عمل كان يهتم بمتابعة كل الأخبار، يعمل تركيزه في العاجل منها.. لكنه في تلك اللحظة كاد يخر مغشيًا عليه؛ حين وجد نفسه هو الخبر العاجل.

على الشاشة ظهر مصنعه، قد تحول ركامًا، و كأنه لم يكن..

كان يعرف المنطقة و المباني على جانبي المصنع، و يحفظ ملامح الموقع عن ظهر قلب.. حين تأكد من الأمر سقط مغشيًا عليه؛ فصدم أطفاله و بذلت زوجته جهدها لإفاقته.

أفاق من الإغماءة ليشتد بكاؤه و صراخه، و احتضنها بشدة في حين ضمته هي الأخرى إليها قائلة:

- أعلم أن الأمر جلل، و لكن كل شيء يهون ما دمت بخير.

تطلع إليها.. حملق في عينيها طويلًا؛ كان يود أن يقول شيئًا ما ، لكنه ظل صامتًا، و عينيه عالقتان في البعيد.

عبثت الذكريات به فخارت قواه، و جلس للأرض؛ فعلقت بقايا المعادن على الارض بلباسه، و راح يحدث نفسه.. قائلًا.:

- لو لم يقصف المصنع يوم عطلة؛ لكنت الآن تحت الركام، و لكان كل شيء قد انتهي؛ فالموت أحيانا يكون تلك الراحة الأبدية اللامتناهية لأمثالنا.. ثم لاحت الدموع في عينيه متسائلًا.. لماذا صار عصيًا علَّى لهذه الدرجة؟!

داعبته صورة أطفاله، و تعلقهم بعنقه حين يعود للبيت في المساء؛ فتراجع عن يأسه، وعاد للتمسك بالحياة على مضض.

انتهي من عمله، خرج للشارع، و قد نسى أن يبدل ملابسه.

في طريق عودته للبيت كان اليأس قد تملكه؛ و لم يعد يكترث لترتيب الصور؛ فالورشة التي يعمل بها تبعد عن بيته مسافة ثلاثة أميال، وقد اختارها بعيدة؛ كي لا يراه أحد أطفاله. حتي يستطيع تمالك نفسه، يعيد بناء الصورة التي كان عليها أمامهم، و ها قد مر عام و نصف على الحادث، لم يستطع بعد إعادة بناء المصنع، و لا حتى بناء ذاته المتهدمة.

في عودته كان يراقب الطريق على الجانبين، .

كانت الحرب التي أشعلها البناءون قد كسحت ديموغرافيا المكان بمعاولها، فاستبدلت الأخضر باليابس و المباني بالركام، كانت أسياخ الحديد تنفر من الأبنية المتساقطة صوب المارة بالطريق، و كأنها أسياف تنذر بالموت القريب.

الطريق ذاتها تورثه كآبة؛ كافية أن تقوده للانتحار.

لمح طيرًا ميتًا على الأرض، و كان العاشر من نوعه، الذى يراه على تلك الشاكلة في طريق عودته.

حينها هزأ، و حزنه الداخلي يكاد يفتك به .. قائلًا:

- حتى الطيور في السماء لم تنجوا من رحي الحرب.

كان قد قطع نصف المسافة، و هو يدير عينيه في كل الأماكن؛ فلا يجد ما يسر؛ وضع يده في جيبه ليخرج سيجارة؛ و حينها اكتشف أنه عائدًا لبيته بملابس العمل؛ فزم شفتيه في غير اكتراث، أشعل سيجارة، وراح يكمل طريقه بقدمين متثاقلتين.

استمر في المشي ببطء حتى اقترب من الحي الذي يقطنه

كان المساء قد أرخي ستاره، و بدا أن الكهرباء قد انقطعت عن الحي بأكمله؛ فأمسك بهاتفه الجوال، و راح يمضى على ضوء الكشاف الخاص به.

على مقربة من بيته كانت تشتعل نقاط إضاءة صغيرة متباعدة. ترسل ضوء أبيض، و تشبه تلك التي يحملها بيده.

سمع خلف النقاط أصوات لرجال عدة، وآنين ضعيف ما لبث أن توقف.

تثاقلت قدماه أكثر، اقترب من البيت كانت نقاط الإضاءة تصدر من هواتف رجال الحي، و الذين اجتمعوا فوق ركام بيته؛ لانتشال جثث زوجته وأطفاله الثلاث.

على مقربة من الركام كانت الجثث الثلاث مسجاه على الأرض؛ جثتان لطفليه، و الثالثة لزوجته و قد اندمجت جثتها برضيعهما؛ فبدوا كما لو كانوا جثة واحدة.

لمحه أحد جيرانه فاقترب منه؛ محاولًا أن يواسيه، و لكنه ما إن لمح الجثث الثلاث على الأرض؛ حتى فر هاربًا.

حاول بعض جيرانه اللحاق به، و لكنهم لم يستطيعوا؛ فقد استسلمت قدماه للريح، و كأن الفرار صار ملاذه الآمن.

كانت البلاد ترزح تحت نير بنادق المرتزقة، الطائرات المدججة بالأسلحة تفرغ حمولتها في مطار البلدة، و الانفجارات تشتعل هنا و هناك؛ تنهش بيتًا أو تاريخًا؛ فيما يتلوى هو بين الأزقة، و الشوارع هربًا.

كانت ثياب عمله الثقيلة تعيق حركته بين الفينة و الأخرى؛ و لكنه ظل يجري بكل ما أوتي من قوة؛ حتى اختفى تمامًا عن أعين جيرانه.

خارت قواه؛ فتوارى في أحد الجدران المتهدمة، و استلقى لبعض الوقت تاركًا لجسده المتعب العنان، نام ليلته، و لم يفق حتي لسعته حرارة الشمس.

فالنوم للمكلومين؛ يعد ملاذًا آمن، و لو لبعض الوقت، لكنه بالنسبة إليه لم يؤت أكله؛ فقد أفاق و قد خضبت الدماء التي نزفها أنفه و فمه و قميصه المتسخ. نظر لثيابه كان كل شيء قد اختلط فوقها.. الحرب، الموت، الخراب، والدماء قد شكلا فوقها مزيجًا بطعم الجرح.

انتبه لنومته بالطريق؛ فتذكر مشهد الجثث، و هي مسجاه على الأرض بجوار ركام بيته؛ فعاود الهرب من جديد..

ظل على حاله تلك حتى وصل إلى سيرابيون.

كانت سيرابيون أجمل المدن في بلاده على الإطلاق بين الحين و الآخر كان أطفاله يلحون عليه في الذهاب لزيارتها؛ فالطبيعة فيها تبدو و كأنها لوحة عظيمة صنعتها يد الخالق. كان تمازج الأخضر و الأزرق مع لون التلال بديعًا، و امتزاج الشلال مع لون سماء المدينة الصافية يفوق كل وصف، و لكن تلك كانت صورة قديمة للمدينة استدعتها ذاكرته.

سرح بعينيه في المدينة حوله.. قائلًا في نفسه:

لو بقي – أولادي- على قيد الحياة لما عاد أحدهم ليطلب زيارتها مجددًا؛ فقد أصبحت خاوية على عروشها..

ثم نقرت الذكرى على رأسه و كأنه كان تائهًا؛ لا يذكر شيء مما حدث.. فعاد يصرخ فاتحًا ذراعيه صوب السماء.

- لو بقى أولادي، لو بقيت زوجتي ...

أدار عينيه على معالم المدينة، التي محتها الحرب، اعتمل بداخله وجع شديد، و وصل إلى أذنيه صوت لهاثه.

ضحك بهستيريا و ضرب بقدميه في الأرض؛ فتألمت قدميه ألمًا شديدًا؛ حينها كف مستسلمًا.

و بينما هو هكذا؛ لمح على مدى العين، مبني وحيدًا مازال يقف شامخًا، و لكنه لم يستكشف ما قد يكون هذا المبني؛ فقد قلبت ملامح المدينة رأسًا على عقب..

اقترب من المبني بتؤدة شديدة فقد كان يعرف المدينة جيدًا، و هذا المبني لم يكن موجودًا من قبل.

لمح على جدران المبني زخارف تفوق كل شيء قد رآه مسبقا، و كانت تتوسطه قبة هائلة.

كان نوع من العمارة لم يستطع تصنيفه؛ فهو محاط بسور عظيم، مزخرف الجدران بأحجار الفسيفساء، و قد نقش فوقه – بماء الدهب - بالخط العريض تمجيدا لصاحبه.

على بوابة البناء الفارهة استقرت لوحة على شكل فيل خط عليها أسماء لخمسة أفراد، أحدهما بخط عريض و البقية بخط أقل عرضا.

حك جبهته بأصابعه حتي كادت أظافرة المتسخة تجرحها؛ في محاولته لتذكر المعالم الأصيلة للمكان.

عاد بذاكرته للوراء.. كان هنا.

** في تشرين الثاني قبل عامين**

كانت المدينة تكتسي بالزرع و الحياة، وتمازج الألوان في اللوحة التي أبدعها الخالق كان في أَوجِه.

هنا في هذا المكان كان قد توقف بسيارته لبعض الوقت؛ كي يتفادى الاصطدام بالأطفال الخارجين من بوابة المدرسة؛ بعد انتهاء اليوم الدراسي.

كانت زوجته تجلس إلى جانبه.. بينما كان يجلس طفلاه في المقعد الخلفي.

هنا رمقه بعض الأطفال بنظرات متفحصة، كان سواد بشرتهم يلتمع مع بياض نواجذهم، و يبعث في النفس بهجة لا تضاهى.

اقترب أحدهم من نافذة السيارة، و سأله بكل براءة:

- هل ستمر من الشارع الكبير؛ فتوصلني في طريقك؟!

حينها أومأ برأسه نافيًا، و لكنه لم يستطع مقاومة تلك الابتسامة الصافية؛ فطلب من الطفل الصعود للسيارة، واتخذ طريقه للشارع الكبير.

ها هو قد تذكر؛ هنا كانت مدرسة دار الحكمة الابتدائية، لقد أقيم هذا الصرح على أنقاضها، و أشلاء الأطفال ذوي النواجذ البيضاء.

آلمه جسده أكثر؛ فقد تذكر يوم هدمت تلك المدرسة فوق رؤوس الأطفال، و رؤوس من فروا إليها هربًا من نيران عدو لا تبقى و لا تذر..

تذكر كيف تسارعت جميع وكالات الأنباء العالمية؛ لتنقل الحدث متصارعين في ما بينهم على من يكون له السبق، اختلطت في ذاكرته الصورة بصورة مصنعه، جثث أسرته المسجاة على الأرض، والتي التقطتها كاميرا عيناه.. تلك التي تفوق كل الكاميرات الحديثة.

تعالي نباح الكلاب الشرسة المحيطة بالمبني؛ فجذبته من ذكرياته.

لمحت عينيه أبراج المراقبة، والتي تنتشر على طول الأسوار المحيطة بالمبني، رأى محرابًا عظيمًا يتوسط سور المبني، و لكنه كان يشير إلى قبلة لا يعرفها..

راح يتساءل في نفسه:

- أي قبلة تلك التي يتولاها محتلونا !!

تراقب عيناه المبني على يساره.. بينما هو يجر قدميه المتعبتين؛ ليقف منه على مسافة شبه آمنة منه.

يفترش الأنقاض تحته، و يلمح بجواره بقايا معدنية لأرجوحة متكسرة. ها قد بدأت رأسه تجمع تفاصيل المدينة المتهدمة.

في هذه البقعة كانت ملاهي المدينة.

لمح من علي البعد طفليه، هما يلهوان بسيارات الملاهي، يتخبطان ببعضهم البعض، بالأطفال من حولهم مازحين غير مكترثين له، و هو يتعجلهم للرحيل.

فجأة علا صوته.. زاعقًا بهم.

- لابد أن نرحل الآن.. أسمعتم؟!

و ما هي إلا لحظات حتي تلاشى الطفلان من أمامه فإنهار، راح يقبض على التراب من حوله، و ينثره لاطمًا خديه، و هو يصرخ.

-لم أقصد هذا الرحيل.. ليس هذا.

ظل هكذا طويلًا، و بينما هو ينثر التراب اصطدمت كفه بقطعة معدنية حادة؛ فأحدثت فيها جرح غائر.

رفع كفه قبالة عينيه، راح ينظر للدماء المتناثرة منه، و هي تختلط بالأرض و تختفي بداخلها؛ فتمنى لو كانت القطعة المعدنية قد جزت عنقه.

رفع رأسه مناجيًا ربه، بدا الخراب حوله كالجراد المنتشر؛ فالبيوت، المشافي، المساجد والكنائس، و المحال التجارية التي كانت هنا؛ كلها أصبحت على مسافة صفر من سطح الأرض.

كان الركام و القمامة منتشرين في جميع الأنحاء، و رائحة الموت تكاد تزهق ما تبقى من أرواح؛ فلم يسلم منه أحد، و لا حتى الكلاب الضالة؛ فأغلبهم موتي.. منتفخون.

أخذته قدماه للشاطئ، جلس على الرمال و رمى بعينيه للبعيد؛ كأنه يبث للأمواج شكواه؛ فتحملها و تجري بها، كان من قبل يجلس نفس الجلسة، لكن فقط ليراقب طفليه، و هما يلهوان، و يستمتع بزرقة الأمواج؛ فلم تكن بقلبه شكوى تذكر مقارنةً بما يحمله الآن.

على بعد خمسون مترًا لمح شابًا يبيع العوامات للصغار، كان يعرف ذلك الشاب جيدًا؛ لقد ابتاع منه لأولاده مرة تلو أخرى.

كان الشاب يجلس على الشاطئ الفارغ واضعًا يده على خده، محاطًا بعواماته المنتفخة.

يتذكر آخر مرة ابتاع منه، و لم يكن قد تبقى معه سوى الألوان التي تروق الفتيات حينها تذمر ابنه الكبير.. قائلًا:

- لقد صرت كبيرًا يا أبي، و هذه للفتيات.

يومها سخر من كلمات طفله، لكنه انتشى بداخله حين اقتربت منه زوجته، و همست في أذنيه قائلة:

- الولد كبر و أصبح راجل.

عاد يبكي من جديد، و هو يردد كلمات زوجته.

- الولد كبر و أصبح راجل.. الولد كبر و أصبح راجل.

ظل يبكي حتى أنهكت عيناه، و التهمته رطوبة المكان؛ فتوسد الرمال المبللة، و ترك جسده في مهب الموج راجيًا أن يسحبه.

و ما هي إلا لحظات حتى عجت شوارع المدينة بالفوضى، راح الأهالي يتوارون خلف الركام، و يتوارى خلفهم أطفالهم.

خرقت أذنيه حينها أجراس الأبواق العالية، انفتحت بوابة المبنى الفخم على يساره على مصراعيها، و خرج منها جيشًا عظيمًا، يقوده ذلك الذي مُجِّد اسمه بالخط العريض فوق جدران المبنى.

خرج الجيش ممتطيًا الأفيال، و كان لقائدهم الفيل الأضخم، و التف حوله العديد من البنائين يسوقون الفيلة بمساطرهم الهندسية.

كانت المساطر أيضًا ذات طراز فخم، ظهرت عليها رسوم لخرائط بارزة ما جعله يدقق بها أكثر، كان يعرف تلك الخريطة جيدًا، ولكن بعض خطوطها كانت ممحوة، و لم يفهم حينها لما مُحيَت !!

كان البناؤون يرتدون تمائم على شكل ثور، يندفعون كالسيل خارج المبنى، من خلفهم جيش عظيم، و ينالون من كل ما يعترضهم...

اقتربوا منه؛ فصرخ و راح يحاول الفرار ..

ها هم يقتربون منه أكثر؛ سيسحقون جسده المتعب بأفيالهم ..

يشد جسده المثقل إلى الأرض، يتركز على ذراعيه، و ينهض على ركبتيه؛ محاولًا النجاة، و لكنهم يمرون فوقة بأفيالهم فتنسحق عظامه.

تتراءى له زوجته.. تمد له من تحت الركام يدًا مضرجة بالدماء، و ولداه وقد توشحا بالأبيض الساكن يحاولان الإمساك به.

أخذ يشدهم بكل ما تبقى لديه من قوة؛ محاولًا النجاة بهم، و لكنهم انفلتوا من بين يديه صارخين.

تشبث بيد زوجته، و لكنها انفلتت هي الأخرى، و ذهبت للبعيد..

استفاق من كابوسه علي نباح كلاب ضالة تقتات على ذراع طفل. كانوا قد جذبوها من كومة قمامة على مقربةٍ منه.

# المبشرون خلسة

ها هو يراقب الطريق من النافذة الخلفية في سيارته المصفحة، و تلك عادة لم تفارقه منذ الصغر، و لكنه كان يفعلها قديمًا من نافذة حافلات النقل العام.

وجه الأمر لسائق سيارته ذو الرتبة العسكرية أن يتأنى في السواقة بعض الشيء؛ فهو يحب مشاهدة الطريق، و رغم أنه يمر من هذه الطريق دائمًا إلا أنه كان مختلفا في عينيه ذلك الصباح؛ فالثلوج قد بدأت تهطل، و تكسوه على الجانبين.

كان الجليد يستدعي في رأسه مواقف من الطفولة لا تستطيع ذاكرته محوها أبدًا ، و لو أراد هو ذلك؛ فيتذكر حين كانت أمه تمنحه معطف أخيه الكبير؛ ليذهب به إلى المدرسة، و كيف كان أقرانه يسخرون منه؛ لأن المعطف يبدو عليه كما لو كان فستانًا، و هو يبدو بداخله كفتاة بائسة. لم تكن ملامحه هادئة كبقية الصبية من حوله، و لكن كانت بها صلابة كَهل ، و لطالما تنمر أقرانه على ملامحه و هندامه.

هو الآن يتذكر تلك المواقف، و لكنه لم يعد يريد محوها من ذاكرته كما كان يريد سابقًا؛ فهي التي حدت به لما صار عليه الآن.

يهزأ ما بينه و بين نفسه.. قائلًا بكلمات غير مسموعة:

- هكذا الإبداع يولد دوما من رحم المعاناة.

يلاحظه جوزيف من مرآة السيارة، و يتسأل في نفسه.

- تري فيم يفكر ؟!

بالفعل راحت السيارة تنطلق ببطء كما أمر بينما أخذت عيناه تخرقان الزجاج، و تتابعان هطول الثلوج.

مرت دقائق من الصمت ليست بالقليلة، و بعدها وجه الرجل الحديث لسائقه.

- أتعرف يا جوزيف.. حين تكتسي المدينة بالجليد؛ يشعرني ذلك بالسلام الداخلي، على عكس ما يطنطن به الكثيرون؛ بأن الشتاء و الجليد يبعثان على الكآبة.

لم يكن جوزيف على دراية بما عليه أن يقول وقتها؛ فلم يكن الرجل معتادًا على الحديث معه، و كان الأمر بالنسبة إليه مفاجأة، لكنه وجد نفسه يثني على رأيه، و إن لم يكن يقتنع به إطلاقًا؛ فبالنسبة إليه و لأية شخص آخر مستقر نفسيًا الجليد يبعث في النفس الريبة، و الشتاء هو الاكتئاب يمشي على قدمين.

لكن الأول كان في كل مؤتمراته الإعلامية كان يتحدث عن السلام، يطنطن به أينما حل، و يخبر العامة أنه يستشعره في كل مكان هادئ؛ لذا فقد بدا في عين سائقه ممن يكذبون الكذبة، و يصدقونها؛ فأثني على كلماته دون مناقشة.

عاد الأول يستطرد قائلًا:

- أهم شيء لرجل السلطة أن يفعل كل ما بوسعه؛ لينال رضا العامة.

حينها تأكد للسائق شعوره الأول تجاهه.. التفت إليه، و في داخله صوت يقول:

- يا جوزيف زوجتك و أبناءك غير راضين، و أنت سائقه الخاص!!.. الرفاق في الحانه يجعلونه مادة للسخرية كل ليلة.

لاحظ الرجل شرود سائقه؛ فباغته:

- جوزيف!!

حينها أستدرك السائق، و أومأ برأسه موافقة.

- بالتأكيد يا سيدي، و هكذا أنت.

- نعم لقد اكتسحت نسب التأييد التي حصلت عليها جميع المرشحين.

كان الأول يعتلى كرسي السلطة في المدينة الجليدية بموافقة العامة؛ ففي تلك المدينة لا شيء يمكن أن يمر دون موافقتهم.

مرت دقائق من الصمت، عاد فيها الرجل يركز بعينيه على الطريق من حوله، حينها رمقة جوزيف من زاوية في المرأة الأمامية للسيارة.. قائلًا في نفسه:

- و لكن بعض العامة يوقعون بالموافقة على الموت الرحيم.

في المدينة الجليدية كان عددًا قليلًا من المواطنين من ذوي المال و الأعمال يعيشون في قصور فارهة، و يمتلكون عوضًا عن السيارة اثنان أو ثلاث من أفخم العلامات التجارية.. تتجول في أحيائهم السكنية؛ فلا يخطر ببالك أن هناك فقراء أو حتى متوسطي دخل، و تتجول في أحياء متوسطي الدخل، و تستمع لخطابات الرجل الأول؛ فلا يخطر ببالك أن هناك أناس من ذوي الثراء الفاحش يعيشون بينهم ناهيك عن الأحياء الفقيرة..

استمرت السيارة المصفحة تمضى إلى وجهتها، و تمر على الأحياء ما فوق المتوسطة و الراقية، يتمعن الرجل الأول في المباني، السيارات المتوقفة على جانبي الطريق؛ فيتملكه شعور كاذب بأنه قد أتم رسالته على الوجه الأكمل. يتنفس الصعداء و تبدو على وجهه علامات الرضا.

كان جوزيف يستقرأ انفعالات وجه الرجل من مرأة السيارة؛ فالتربية العسكرية التي نشأ عليها قد علمته الكثير.

كان الرجل راضيًا؛ لأن خلف تلك الجدران التي ينظر إليها مواطنون يملكون ما يدفئهم، و يقي أجسادهم من برد الشتاء القارص، لكنه لم يكن يعلم، و لربما كان يصطنع الجهل بالأمر؛ فيتناسى أن هناك من يعيشون أطراف المدينة، و لا يملكون أي شيء إطلاقًا؛ فهم يأنون بصمت حتى الموت.

مرت ثلث ساعة منذ انطلقت السيارة، حتى أطفأ جوزيف محرك السيارة.. قائلًا:

- سيدي.. ها نحن قد وصلنا.

توقفت السيارة أمام المبنى الأفخم في المدينة؛ فهو مشدد الحراسة، محاط بتماثيل عدة كبيرة الحجم شاهقة الارتفاع من جهاته الأربع، تبدو للعين من بعيد كما لو كانت منحوتات مختارة من الحضارة الرومانية، و لكنها لم تكن كذلك فقد استقى ناحتوها فقط من روح التماثيل الرومانية؛ كي يضفوا طابعًا مميزًا على البناء.

هرع أحد الحراس؛ لفتح باب السيارة.. مؤديا التحية العسكرية.

عدل الرجل الأول من وضع هندامه و ترجل من السيارة. كان يمشي بخطوات وئيدة مرفوع الأنف.. منتفخ الصدر.

اتخذ طريقه لمكتبه من الممر الفخم، و الذى قد زينت جدرانه بصور المؤسسين كانت له أيضًا صورة بالممر، و لكنه يرى أنها لم تتخذ بعد الوضع الذي يليق بها. كان يحدث نفسه بين الحين و الآخر.. قائلًا:

- يومًا ما ستوضع في مكانها المناسب.

انتهى من الممر؛ فانفتح باب مكتبه، و دلف للداخل ثم أُغلق الباب من جديد.

في الداخل اعتلي كرسيه الفخم، و كان مكتبه معزول كليًا؛ فلا يضربه حر أو صقيع، و لا يتأثر بصخب الشارع من حوله هذا إن كان له صخب.

راح يدور بالكرسي يمينًا و يسارًا أنصاف دورات، متناسيًا أمر كل شيء في الخارج ثم توقف؛ ليعدل وضع الكيباه على رأسه، و بعدها أشعل غليونه.

رجع بظهره للخلف ثم أخذ نفسًا عميقًا، وراح ينفث دخانه ببطءٍ شديدٍ.

اصطدم خيط الدخان الذي ينفثه بمجسم للكُرة الأرضية يستقر فوق مكتبه، أعجبه المشهد فعاود الكَرة، و لكنه هذه المرة قد نفث الدخان بكل عنفوانه، فخرجت من أنفه سحابة دخان كثيفة التفت حول المجسم؛ فبدا المجسم أسفلها ضبابيًا.

ألقى حينها على المجسم نظرة مشبعة بالغرورِ و التعالي، و كأن شيء ما في داخله يخبره أن الأرض كلها قد صارت طوع إرادته.

سرح مطولًا في الأمر، و بينما هو كذلك عاد بذاكرته مجددا لتلك الأيام البعيدة حين كان طفلًا مضطهدًا من أبيه و جيرانه و رفقاء الدراسة، و فجأة و بدون أية مقدمات رفع سبابته بعنف بينما قبض باقي أصابعه.. قائلًا بصوت مسموع:

- لو شئت الآن لمحوتهم جميعًا من على وجه الأرض، و أولهم أبي.

و لكن تكفيني نظرة الذل التي ألمحها في عينهم كلما رأيت أحدهم صدفة؛ فحثالة البشر لا يرقون لدرجة أن يشغلوا لي بالًا على الإطلاق، و هذا ما أقنعت به ذاتي منذ الطفولة.. كل ما عداي حثالة؛ لهذا أنا هنا، و هم ما زالوا متجمدين هناك في ذاك الحي الفقير.

بعدها مد يمينه ناحية المجسم، و لفه فدار دورة كاملة، فعل ذلك بطرف سبابته.

بدت له حركة المجسم اهتزازية، و كأنما هي زلزلة؛ فارتسمت ابتسامة خبيثة على شفتيه.

مضت لحظات ليست بالقليلة حتى عاد المجسم للثبات؛ حينها ضاق به ذرعًا حتى كاد يلقيه من فوق مكتبه، و لكن ما إن لاحت لعينيه تلك البقعة السوداء؛ حتى استقرت نفسه الشرهة من جديد.

كانت الثلوج لازالت تهبط بالخارج عازفة لحن الحياة و الموت، و تختار على وقعة الرابحون.

جذب المجسم إليه، و تمعن جيدا في تلك الخطوط المرسومة فوقه.. ثم أغمض عينه قليلًا.

تذكر جزء من قصيدة محمود درويش كم كان يمقته؛ فقد ولد كلاهما في نفس الفترة تقريبًا، و نشأ كل منهم على طرف من أطراف فلسطين، و لكن درويش كان من أصحاب الأرض، على عكسه هو و والديه، و الحياة هناك لم تكن تهدأ أبدًا، فما بين أصحاب الأرض و مغتصبوها تدور رحى المعارك بين الحين و الآخر؛ لذا فقد انتقلت أسرته للمدينة الجليدية، و انتقل هو

معها، صار مواطنًا من مواطني تلك المدينة، هَرِم و هو يحيك الخطط في الظل؛ حتى اعتلى الآن كرسي الحكم.

صار درويش شهيرًا.. بالطبع لم يحكم، لكن العامة كانوا يعشقونه، يحفظون قصائده، مات و مازال حيًا في ذاكرتهم.

كان الرجل الأول على يقين من أن لا أحد إطلاقًا يحبه.

لم يكن وقتها يعنيه من درويش، و لا من حب العامة له شيئًا. غير كلمات قصيدته؛ فجذب نفسه بعيدًا عن أفكاره تلك، و ترك الكلمات تسرى في كيانه؛ لأمر ما كان يسره في نفسه.

هذا البحر لي..

هذا الهواء الرطب لي ..

هذا الرصيف و ما عليه ...

لاقت الكلمات هوى في نفسه؛ فأخذ شهيقًا عميقًا ثم أمسك بهاتفه النقال.

في عمق أفريقيا السمراء، في القصر المهيب الذي يتوسط البلاد، و الذي بني على أكتاف سكانها، و كان سببًا في الاقتطاع من قُوتِهِم لشهور؛ كي يبدو في هذا البهاء بعدما تم إقناعهم بأن القصر سيكون واجهتهم أمام العالم، آمنوا بتلك الفكرة و راحوا يفنون بها طاقتهم و عمرهم، خصوصًا بعدما تسلل بينهم المبشرون خلسة، أقنعوهم بأنه سيصير من عجائب الدنيا ، و أن ذلك حتما سيعود عليهم بالنفع.

في الجناح العلوي للقصر، كان الأب الذي اشتهر بتلعثم كلماته ممددًا في فراشه بين الحياة و الموت، و يحفه ثلاثة أطباء أجانب.

كان الرجل الأول قد أرسل هؤلاء الأطباء مسبقًا لعلاجه، و قد أعطاهم أوامر واضحة:

- عليكم بذل الجهد لتتحقق الوفاة قريبًا و بشكل طبيعي.

كان الابن الأكبر للأب المريض على علم بتلك التعليمات، و لكنه لغرض ما في نفسه كان يتعامى عنها، واضعًا خططه المستقبلية أن يحل محل أبيه.

على الرغم من أن الحكم في تلك البقعة لم يكن متوارثًا دستورياً؛ فقد كان هناك عدد من الصناديق الموضوعة جانبًا، تضطر كاميرات التلفاز أن تلتقط لها صورًا. كلما مات أحدهم أو كلما مر عدد لا بأس به من السنين، و لكنه لم يكن يعر ذاك الأمر اهتمامًا.

فهو يقف في الشرفة الخلفية للقصر بجسده المفتول مرتديًا بزته الـــــ( ستيوارت هيوز)، و يتابع عقارب ساعته الـــ( الكارتيير ) بينما يتلاعب الهواء بشعره المجعد يمنه و يسره، و يطل على الحديقة الخلفية؛ لقد كانت المزرعة الأكبر بالبلاد...

على مدى بصره ظهر أناس كثر يستعملهم فيها. كانوا يزرعون و يحصدون، لا يلتفتون إطلاقًا، و كأنما هم آليين قد بُرمجوا على العمل؛ يخاف الواحد منهم أن ينظر خلفه خشية السياط، التي تختلط لسعتها بلسعة شمس القارة الحارقة، و تكاد تذيب أمخاخهم فيما تمور الأرض من تحت أقدامهم العارية، كان الواحد منهم يشعر بلسعة التربة تحت قدميه؛ فيرفع رجلًا بالتبادل مع الأخرى بين الحين و الآخر..

تصاعدت من هاتف الولي صوت تلك الأغنية الفرنسية لـــ

Edith Piaf

تقول فيها

Non, rien de rien
Non, je ne regrette rien

كان يعشق هذا المقطع من الأغنية؛ فبالفعل لم يكن يندم على شيء في الحياة، و لا يعنيه شيئا فيها سوى ذاته المتخمة...

هرول إليه خادم يبدو عليه شيء من الأناقة.. على العكس تمامًا ممن هم بالخارج لكن سوء التغذية كان يبطئه قليلا، منحه هاتفه النقال؛ فلسعه الولي بالسوط لبطئه، و أمره بالانصراف.

كان الرجل الأول هو المتصل؛ حينها ضغط الولي زر الإجابة مسرعًا، أتاه الصوت من على الجانب الآخر :

- مساء الخير ..

أجاب الولي بصوت مكتوم، و مهزوز:

- مساء الخير..

رد الرجل الأول.. هازئًا.

- يلوح شبح التخمة في صوتك.

- سيدي.. أنت تعرف الطعام و المال من أجمل النعم..

حينها دوت من الأول ضحكة مجلجلة.. قائلًا:

- و الكراسي أيضًا. أخالك نسيت أن الشتاء هنا قد بدأ، و أن مدينتي بدأ يكسوها الجليد.

كانت نبرته الأخير تهديديه بما يكفي؛ لتصل الرسالة تمامًا كما أراد لها أن تصل، و بعدها أنهى المكالمة.

أسقط ما بين يدي الولي، و كان يعرف جيدًا أن كل ما سعى إليه من الممكن أن يضيع بلحظة؛ فلا مزاح مع ذلك الرجل، فعلى الرغم من كونه هرمًا؛ لكنه يستطيع أن يفعل بالعالم بأسره ما يريد.

جلس الولي صامتًا لوقتٍ، و كأن على رأسه الطير.. حتى رن جرس هاتفه من جديد، و لكن تلك المرة كان أحد الأطباء يخبره بوفاة والده.

حينها تنفس الصعداء، و أمر الطبيب بكتمان الخبر.

و ما هي إلا لحظات حتى انفتح باب الجناح الخلفي، و دلف إليه ابنه الأكبر باكيًا، فجلس مبهوتًا و كأن على رأسه الطير.

عاد بظهره للوراء، و تذكر ذلك اليوم الذي مات فيه جده كان في الحادية عشر من عمره، يومها دخل على أبيه منهارًا من ذلك الباب كما فعل ابنه للتو.

اقترب منه الطفل باكيًا.. متسائلًا:

-ألن يعود جدي ليجلس معنا بعد الآن؟

كان ذلك نفس السؤال الذى سأله الولي لأبيه من قبل. حينها زم شفتيه، أحتضن ولده بشدة، و كأنما هو يحتضن نفسه صغيرًا.. قائلًا:

- أصبح جدك الآن في مكان أفضل..

مسد بيديه شعر طفله، و تخيله شابًا يقف في الشرفة الخلفية يتابع أعماله بينما هو نفسه ممدًا في الجناح العلوي يحوطه الأطباء، بدا في تلك اللحظات التي أحتضن فيها ابنه، و كأنما هو يقرأ مخطوطة تاريخية تتكرر فيها الأحداث بنمطية شديدة، و دون أن يدري أحكم يديه على عنق ابنه حتى كاد يخنقه.

تنحنح الولد بصعوبة.. قائلًا:

- أبي أكاد أختنق.

حينها انتبه الولي فجأة، أبعد يديه عن عنقه، انفلت الولد من بين يديه، هرع للجناح العلوي من جديد، و أخذ يراقب جسد جده الممدد على الفراش، و دموعه تنساب في حرقة.

استجمع الولي شتات نفسه.. ثم وقف منتصبًا، و أمر بجمع العمال و خدم القصر.

و ماهي إلا لحظات. حتي كان الجميع يقفون أمام مدخل القصر الفخم، و المزين بأحجار الفسيفساء.

توجه الولي لغرفته، و ارتدي هندامًا يبدو بسيطًا؛ كي يشعر المتحلقون حول مدخل القصر أنه واحدٌ منهم كان يهزأ في نفسه، و هو يرتدي تلك الثياب.. قائلًا:

- كما كان أبي يخبرني دائما.. أن لكل عمل أدواته الخاصة.

ترك غرفته، و خرج متوجها لمدخل القصر، خطب في خدمه و عماله خطبة عصماء، و راح يمنيهم بتحسن الأوضاع و رغد العيش..

اشتعل الأمل في نفوسهم جميعًا.. في حين اشتعل الرخام أسفل أقدامهم العارية، و ظلوا يعملون على حالهم تلك. بعد مرور يومين أعلن خبر الوفاة؛ فكان لابد من تسريح العامة حتى تنتهي مراسم الجنازة.

ما إن تم إعلان الخبر حتى علت شارة الحداد جوانب كل قنوات البلدة التلفزيونية، و المعزيين من مذيعي برامج ( التوكشو) على الشاشات يلتمسون العون للولي، و في نفس الوقت يمنحونه ثقتهم و ثقة العامة في قيادته الرشيدة.

في ذات اليوم .. استقدم الرجل الأول فريق أطبائه للمدينة الجليدية، في اليوم التالي، و على متن نفس الطائرة بعث مستشاره و مندوبية لحضور الجنازة.

أغلقت كل طرقات البلدة المؤدية من المطار للقصر في وجه العامة، و أقيمت جنازة عسكرية تليق بالأب الراحل. تصدرها الولي و ابنه و مندوبي الرجل الأول، و تلاهم مندوبين من جميع الدول.

أُودَعَ الجثمان مثواه الأخير، فأمسك أحد مستشاري الرجل الأول بيد الولي، و بدت على وجهه ضحكة خبيثة، و هو يعزيه!.. ثم مسح على شعر الحفيد بذات الابتسامة!

على الجانب الآخر من الكرة الأرضية كانت وكالة الأنباء الأشهر تتناقل صورة المندوب، و راح العامة يتسألون عن سر بسمته، و التي بدت كأنها في حقل تنصيب.

لكن الكاميرات نقلت فقط الابتسامة؛ فيما بقيت كلماته للعزاء لغزًا للجميع.

انتهت مراسم الجنازة، عاد الولي إلى القصر، و معه رجال الرجل الأول.

في مكتبه جلس مستشار الرجل الأول على كرسي الولي، و بدا الولي أمامه و كأنما هو تلميذ في أولى مراحل دراسته.

وضع المستشار على مكتب الولي مجسمًا للكرة الأرضية يشبه نظيره على مكتب الرجل الأول، ثم نظر للولي، و أدار المجسم بطرف سبابته.

حينها تفهم الولي الرسالة جيدًا، فقد أتم سنوات دراسته بأكملها في المدينة الجليدية؛ لذا كانت رسائل رجالها تصل عقله بسهولة شديدة.

قبل أن يقوم المستشار من فوق كرسيه كان قد وقع عقودًا تقضي باحتكار كل ما تنتجه الدولة.. بعدها هنأ الولي بالحكم، و أتخذ الوفد المصاحب له طريقهما للمطار.

في مكتبه كان الرجل الأول ينفث دخان سجائره، و هو يتابع لقطات مسجلة للحفيد..